

مهند مصطفى وعرين هوارى

يتناول العدد الحالي من مجلة جدل باكورة أعمال طلبة دكتوراه شاركوا في سمينار البحث العلمي الذي ينظمه مركز مدى الكرمل كل عام، والذي يرمي إلى تحقيق أمرين نراهما في غاية الأهمية: دعم مسيرة الطلبة الأكاديمية نحو إنتاج معرفة منحازة وطنياً، ولكنها علمية وتنتج باللغة العربية. فاللغة هي جزء من ماهية المعرفة، وقيام طلبة شباب فلسطينيين بعرض بحوثهم في اللغة العربية يُعتبر بحد ذاته جهداً معرفياً لا يقلّ مثابرة عن الجهد المعرفي المبذول فكراً ودراسة في موضوع البحث. لذا، فإنّ السمنار يضع أمام الطلبة كذلك تحدّي التعامل مع الإنتاج المعرفي العلمي باللغة العربية في العلوم الاجتماعية والإنسانية على مَحْمَل الجِدِّ في مسيرتهم الأكاديمية والبحثية.

لا نعني بإنتاج معرفة وطنية لفلسطين والفلسطينيين الانعتاق عن التراكم المعرفي الإنساني وعن الأطر النظرية العالمية والأبحاث المنجزة في الحقول العلمية التي يبحثها المشاركون، بل نعني إنتاج معرفة مستأنفة عن الهيمنات المعرفية القائمة، من خلال النقد والتفكيك ثم التركيب وإعادة إنتاج المعرفة القائمة بمفهمة وتأطير متجددين. فالاستئناف على المعرفة القائمة لا يعني الانعزال عنها، بل يعني أنّ مَمْلِكها لا أنّ مَمْلِكنا، أنّ نحيط بها لا أنّ تحيط بنا، أنّ نعقلها لا أنّ تحتلّ عقولنا فتتحوّل إلى أيديولوجيا قاتلة للعقل المعرفي العلمي. إذن، يهدف هذا السمينار إلى دعم طلبة الدراسات العليا الفلسطينيين وهم في طريقهم نحو إنتاج معرفة فلسطينية تعيد إحياء الحداثة الفلسطينية المبتورة منذ عام 1948، وتعيد الاعتبار للحقل الثقافي الفلسطيني، ولا سيّما أنّ السمينار يجمع طلبة وطالبات فلسطينيين يدرسون في جامعات مختلفة، وهم يلتقون في هذا السمينار بصورة استثنائية لطرح معرفة في واقع غير طبيعي، وهو تحدّي سياسي وعلمي في الوقت نفسه. يتمثل التحدي السياسي في إنتاج حقل فلسطيني علمي وسوسيولوجي في واقع التجزئة السياسية، ليتحوّل الحقل الثقافي المعرفي إلى أساس وحدة الشعب الفلسطيني.

يشمل العدد الحالي سبعة نصوص لطلبة وطالبات شاركوا في السمينار، يتناول المقال الأول البحث الذي تقوم به الطالبة إلهام شمالي من قطاع غزة، والذي يسعى إلى فحص أهمية الدور الذي مارسته مؤسسة "الكيرين كاييمت" في تجسيد دولة إسرائيل، مشيرة أنّها تُعدّ "أولى المؤسسات الصهيونية التي انبثقت من المنظمة الصهيونية عام 1901م،

وقد جسّدت أيّدولوجيّة الاستعمار الكونياليّ تجاه أرض فلسطين وشعبها وكشفت مبادئها عن الأصول العنصريّة التي صاغتها المنظّمة الصهيونيّة".

الطالبة رائفة جبارين تعالج في مقالها موضوع المعرفة والمواقف والسلوكيات الجنسانيّة لدى طلبة الثانويّة الفلسطينيّين في إسرائيل، مشيرة إلى أنّ "المجتمع الفلسطينيّ في إسرائيل يعيش مرحلة مجتمعيّة انتقاليّة، ولا سيّما في ما يتعلّق بالعلاقات داخل العائلة حيث الفجوات بين الأجيال كبيرة وتتعمّق على نحوٍ خاصّ عند الحديث عن الجنس والجنسانيّة التي ما زالت في عداد "التابوهات" الاجتماعيّة؛ وحيث في المعتاد يواجه الأهل والمعلّمون صعوبة في التعامل مع هذا الموضوع الحساس.

أمّا الدكتورة حنين مجادلة، فقد أشارت، في مقالها حول الجماعات الإسلاميّة في المجتمع الفلسطينيّ في إسرائيل وتوفرها لخدمات اجتماعيّة للأطفال، إلى نتائج البحث المركزيّة مدّعية أنّ للجماعات الإسلاميّة حضوراً وتأثيراً كبيرين، حيث تنشط هذه الجماعات في الحيّز السياسيّ والاجتماعيّ كما هو حال الجماعات الإسلاميّة في الشرق الأوسط. وعلى الرغم من التشابه في النشاط وظروف تأسيس الجماعات في سائر الدول العربيّة، تنفرد الجماعات الإسلاميّة في البلاد بأنّها الوحيدة التي تطوّرت، وما زالت تعمل تحت سلطة غير مسلمة، بل معادية أحياناً.

وأما الطالبة بسمة أبو تنها، فتبيّن في مقالها المعنون بـ "سرد قصصٍ لسيرة حياة نساء فلسطينيات في إسرائيل اللاتي نشأن في عائلات تطلّق فيها الوالدان على خلفيّة عنف زوجيّ"، ومن خلال تلك السّير، أنّ التجارب التي عاشتها تلك النساء في طفولتهنّ تركت آثاراً قويّة في نفوسهنّ، وما زالت ترافقهنّ حتّى اليوم. تظهر تلك القصص في مراحل مختلفة من حياتهنّ، تختفي وتتغيّر تارة، وتعود لتظهر بقوة تارة أخرى. منها قصص انكسار وضعف وخوف يرافقهنّ منذ كنّ فتيات، ومنها قصص إصرار وتحدّ وصل جديد للذات.

الطالبة أماني هوارى تعالج في مقالها مظاهر الأدب النسويّ في كتابات يوسف إدريس وزكريّا تامر، وتشير إلى أنّ موقف كلّ من هذين الكاتبين من المرأة "ينسجم مع مواقف نصيّة عديدة لكلّ منها؛ ففي العديد منها يبدوان نصيرين للمرأة متعاطفين مع قضاياها، كما يبدوان ساخرين من كلّ القوى التي سلبت الإنسان المستضعف حرّيّته. فتكون مناصرتهما للمرأة منسجمة مع رؤيتهما المناهضة للاستعمار، على سبيل الموازنة بينها وبين المستعمر المستضعف في الصورة السياسيّة العامّة".

أمّا الطالبة شيرين تناصرة برغوث، فقد تناول مقالها البحث الذي تقوم به حول موضوع التعالّق اللغويّ بين العربيّة وأخواتها الساميّة اعتماداً على أعمال الأب أنستاس ماري الكرمليّ اللغويّة، ولا سيّما في علوم اللسانيات العربيّة والبحث المقارن مع اللغات الساميّة، لتطرح العديد من الأسئلة حول أعماله، وتتعامل معها في بحثها، من بينها -على

سبيل المثال:- ما هو مصدر التعالق اللغويّ بين العربيّة وغيرها من اللغات الساميّة، اعتمادًا على أعمال الكرمليّ؟ وما الذي يميّز هذا التعالق اللغويّ بين العربيّة وغيرها من اللغات الساميّة؟

وختّم العدد بمقال للدكتور نايف عوّاد يتناول فيه مدى قدرة طلاب المرحلة الإعداديّة على تعلّم مواضيع علميّة - تكنولوجيّة متقدّمة في سنّ مبكرة، وكذلك يقوم بكشف العوامل التي من شأنها أن تؤثر على تحصيلهم ودافعيتهم للتعلّم، فيؤكّد "ضرورة تطوير وتدريس مواضيع علميّة -تكنولوجيّة متقدّمة تتّصل بواقع الطالب اليوميّ، وتخطب تحديات هذا العصر الرقّميّ، بحيث يكون الدمج بين المواضيع المختلفة -كالفيزياء والإلكترونيّات والتكنولوجيا والحاسوب والرياضيّات- أمرًا طبيعيًا وتلقائيًا، وجزءًا لا يتجزأ من سيرورة العمليّة التعليميّة".

كيرين كاييمت لیسرائیل (الصندوق القومي الإسرائيلي) في فلسطين

إلهام شمالي*

تُعدّ مؤسسة الكيرين كاييمت أولى المؤسسات الصهيونية التي انبثقت من المنظمة الصهيونية عام 1901م، فقد جسّدت المؤسسة أيديولوجية الاستعمار الكونياليّ تجاه أرض فلسطين وشعبها، فكشفت مبادئها عن الأصول العنصرية التي صاغتها المنظمة الصهيونية، وألزمت بها جميع مؤسساتها للهيمنة على أرض فلسطين قبل ستّة عشر عامًا من صدور تصريح بلفور؛ فقد كان الصندوق إحدى أهمّ الركائز لإقامة الدولة عام 1948م. ⁽¹⁾ قامت سياسة الكيرين على تملُّك الأراضي وفق سياسة منطقيّة، وهي أنّه يجب على الصهيوينّين البحث عن الأراضي ذات الكمّ والكيف من حيث الموقع والتواصل الجغرافيّ الإقليميّ، وخلق كينونة استعماريّة لهم بعد فشل الاستعمار الخاصّ الذي مارسه مؤسّسة الاستيطان الممولة من مؤسستي هواة صهيون وبيلو. ويمكن استنباط نمط آخر من هذا المنطق، وهو أن يستقرّ الصهيوينّون في أراض ذات فائدة اقتصاديّة وفق المملّكية المشتركة، بما تناسّب مع الأيديولوجية الصهيونية التي نظرت إلى أرض فلسطين على أنّها ذات مملّكية عامّة للشعب اليهوديّ وفق تعاليم توراتيّة مزعومة،⁽²⁾ لذلك شكّل الاستيلاء على الأرض عنصرًا أساسيًا في الفكر والممارسة الصهيوينّين، وما بين احتلال الأرض والعمل طبّق الصندوق مبادئه وألزم المستوطنين بتنفيذها في عقود استئجار ميسرة للغاية، وذلك في إطار محاربة اليد العاملة العربية وإجبارها على ترك الأرض، ابتغاءً لإحداث خلل ديمغرافيّ لصالح المستوطنين وإيجاد أمر واقع يُفضي إلى إقامة المشروع الصهيونيّ خلال فترة وجيزة، إذ كانت مؤسسات المنظمة أشبه بدولة داخل حكومة الانتداب التي بقوانينها سهلت تمرير الأراضي للكيرين.

بدأ اهتمام الباحثة بدراسة المؤسسة الصندوق كونها مثلت المؤسسات التي أقامت دولة إسرائيل قبل عام 1948م، واستكمالاً لدراسة الباحثة في مرحلة الماجستير التي عالجت فيها مؤسسة كيرين هايسود (صندوق تأسيس فلسطين) الجناح الماليّ للوكالة اليهوديّة خلال الفترة الواقعة بين العامين 1920-1948م، التي أقامت علاقات شبه دوليّة وفرت القروض للكيرين كاييمت والمناح الماليّة عبر اللوبي الصهيونيّ.

ثمّة أهداف عديدة للدراسة الحاليّة ترمي بالباحثة إلى الوصول إليها، من بينها فحص حقيقة دور الصندوق ونشاطه في فلسطين وخارجها، عبر إلقاء الضوء على أهمّ المؤسسات الاقتصاديّة الصهيونية قبل عام 1948م، ومن ثمّ توضيح مدى الكفاءة التي تميّز بها هذا الصندوق في خدمة المشروع الكونياليّ، وقدرته على تسخير إمكاناته الماديّة كافّة للسيطرة

[¹] Eretz Israel jubilee volume of the Jewish National Fund, 1901-1931, Jewish National Fund, New York, 1932. P.31

[²] كيسيليف (1979): الصهيونية في بنیان الإمبريالية، الصهيونية الدولة، ترجمة: محمّد الجندي، دار ابن رشد، بيروت، ص13.

على الموارد المالية اليهودية والصهيونية، ومن المهم المقارنة بين الأدبيات الإسرائيلية التي تناولت الصندوق والصحف الفلسطينية التي تطرقت إلى مناقشة أوضاع فلسطين ودورها في تسليط الضوء على تسرّب الأراضي قبل عام 1948م.

يُكمن سؤال الدراسة في فحص أهمية الدور الذي مارسه الصندوق في تجسيد دولة إسرائيل. وهذا السؤال ستجري الإجابة عنه من خلال أسئلة فرعية إجرائية من بينها:

كيف امتلك الصندوق القومي اليهودي الأراضي التي بحوزته عام 1948م؟
ما مدى قدرة الصحافة العربية على كشف عمليات تسرّب الأراضي؟
هل المعلومات والاستنتاجات في الأدبيات الإسرائيلية متقاربة؛ أم معاكسة للأدبيات الفلسطينية والعربية حول نشاط الصندوق؟

مراجعة الأدبيات السابقة:

تطرقت الدراسات التاريخية السابقة إلى دور الصندوق من منظور الأدبيات الإسرائيلية، ومنها دراسة وولتر لين "الصندوق القومي اليهودي"، التي تناولت فيها دراسة الصندوق على مدار قرن من الزمان، وتناولت بعض الدراسات الأجنبية للمؤسسات الصهيونية ومنها دراسة أوبرين "المنظمات اليهودية"، في حين لم تتطرق أية دراسات عربية من قبل إلى مؤسسة الكيرين كاييمت على نحو مستقل. لذا، تُعدّ دراستي استكمالاً لتلك الدراسات.

تكمن صعوبات الدراسة لباحثة مقيمة في قطاع غزة في تشعبها، من بينها ما يتعلّق بجمع مصادر المادة العلمية من داخل فلسطين المحتلة عام 1948م، وصعوبة التواصل الجغرافي والوصول إلى المكتبات ودور الأرشيف في مدينة القدس وبقية الجامعات الإسرائيلية، وكذلك رصد ومتابعة الصحف اليومية خلال سبعة وأربعين عاماً من نشاط الصندوق لعدّة صحف عبّر دور النشر المصرية، ودار الوثائق المصرية، ووزارة الخارجية المصرية.

منهجية البحث: بناءً على طبيعة الدراسة وتعدّد جوانبها، ستتبّع الباحثة في دراستها المزج بين المنهجين الوصفي والمنهج التاريخي لتحليل المضمون التاريخي من خلال وصف المواقف والظواهر وتحليلها والمقارنة بينها، ويرمي المنهج الوصفي إل رصد الموضوع وفهم المحتوى والمضمون لتحليل تنامي دور الصندوق. أمّا المنهج التاريخي، فيتتبّع التطور التاريخي لهذه المؤسسة ورصد نشاطها اعتماداً على الوقائع التاريخية المحيطة، وذلك عبّر جمع المادة العلمية من مصادرها ومراجعتها والمقارنة بينها وتحليلها ونقدها، وصولاً إلى المعلومات التاريخية الأقرب إلى الحقيقة الواقعية.

هدف الدراسة:

ترمي الدراسة إلى الكشف عن الدور الحقيقي الذي قام به الكيرين كاييمت في ابتزازه وتحايله على أهالي فلسطين والعرب لسلب أراضيهم بأبخس الأثمان، وترحيلهم في سبيل إحداث توازن ديمـجرافي لمصلحة المستوطنين، واستخدامه لمصطلح الترانسفير منذ عام 1938م، وكذلك الكشف عن كيفية توظيف المال والإعلام في إقامة دولة لم يكن لها وجود من قبل؛ فالهجرة والاستيطان ما كان من الممكن أن يتحققا لولا توافر قوة المال والدعاية الصهيونية التي مورست بإتقان، حيث أبرزت تلك التبرّعات حجم المؤامرة التي ضلعت فيها دول العالم ضدّ الشعب الفلسطيني، في الوقت الذي

لم تتوافر فيه أية تبرّعات لدعم الفلسطينيين لتعزيز صموده وثباته في وجه المخططات الصهيونية. ولا تقصد الدراسة عرض جدول عن الأراضي التي حصل عليها الكيرين والتي لم تتعدّ نسبتها 3% من مساحة فلسطين.

بعض ممّا تناولته الدراسة

تضمّنت الدراسة العوامل التي أسهمت في إنجاح الاستيطان الكونيالي، من إقامة القنصليات الأجنبية في فلسطين وتنافسها على حماية اليهود، وسوء الإدارة العثمانية وقوانينها الجائرة التي وُضعت بادّعاء تنظيم ملكية الأراضي، وإصدارها لقانون تملك الأجانب؛ فقد بذلت القنصليتان الألمانية والبريطانية على وجه الخصوص جهداً في تمليك رعاياهما للأملك غير المنقولة، حيث تدخل القنصل البريطاني تميل مور لتثبيت ملكية أراضي جمعية مرسلي الكنيسة الإنجليزية في فلسطين (3) وحصل يهوديان عام 1860م على قطعتين من الأرض: الأولى تملكها شلومويهودا بمساعدة القنصل البريطاني وتشكّل جزءاً من أراضي فالونيا غربي القدس، والثانية اشتراها اليهودي البرتغالي جوزيف ناسي قرب بحيرة طبريا، كما حصلت عائلة بيرجهام اليهودية الألمانية عام 1872م على 500 فدّان في قرية أبو شوشة جنوب الرملة، بالمزاد العلني، وذلك نتيجة تأخّر أصحابها عن دفع الضرائب المستحقة (4). كذلك اشترى الصحفي اليهودي ألموشيه سلمون 3,375 دوغماً عام 1878م من أراضي قرية ملبس بحضور القنصل النمساوي، (5) وقطعة أخرى مساحتها عشرة آلاف دونم اشتراها من تاجرين مسيحيين هما سليم الكسار وأنطون الطيان، وقد أقيمت عليهما مستوطنة بيتاح تكفا عام 1878م.

لقد رفض قنصل الدول الأوروبية الفرمانات العثمانية التي حدّت من هجرة اليهود واستيطانهم، وعملوا على عرقلتها؛ فحين أصدر السلطان عبد الحميد الثاني فرمان عام 1887م الذي يقضي بمنع الهجرة اليهودية، وجدّده عام 1893م، احتجّ قنصل الولايات المتحدة الأمريكية معتبراً أنّ المهاجر اليهودي الأمريكي هو أمريكيّ أولاً، ولا يجوز منعه من الهجرة أو شراء الأراضي في فلسطين. كذلك رفضت القنصليّة البريطانية الفرمان، واعتبرته متعارضاً مع الامتيازات والحقوق التي حصلت عليها، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل قامت بمنح حمايتها لأكثر من مئتي عائلة يهودية وصلت إلى فلسطين، (6) وأرسل قنصلها في القدس عام 1904م رفض حكومته لقوانين الهجرة، كما أشار ديكسون في رسالته إلى عدم قبول حكومته بذلك، وأنها لا يمكنها إرغام اليهود على مغادرة فلسطين أو منعهم من شراء الأراضي كما حثّت القوانين العثمانية. (7)

ظهرت حركة الاستيطان الألمانيّ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأخذت منحنى آخر حين تمكّنت جمعية الهيكل الألمانية من الوصول إلى فلسطين عام 1869م، وتزعّم حركة الهجرة يهودي ألماني يدعى كريستوف هوفمان، وكانت دعوته ذات مظهر ديني، وانضمّ إليه جورج هارديج فأسس أول مستوطنة ألمانية بترخيص عثماني على جبل الكرمل عام 1869م، بمساعدة القنصل البروسيّ سيفوس، ثمّ تمكّن المستوطنون من بناء إحدى عشرة مستوطنة في حيفا

(3) الأرشيف الصهيوني: مراسلات القنصليّة البريطانية P.R.O.Fo.78/368.

(4) محمد صلاح الدين، (1993): ملكية الأراضي في فلسطين 1918-1948م، الجامعة الأردنية، عمان، ص 72.

(5) الأرشيف الصهيوني، الوثيقة رقم M.N.D21/467 المؤرخة في 6/8/1850م، سجل محكمة يافا الشرعية ببيع الأراضيرقم 20، ص 74، 75.

(6) رسالة وزارة الخارجية البريطانية للقنصل البريطاني العام في مدينة القدس، The Zionist Archives F.790/23.

(7) 195/2175.64Dickson to o,conor12/10/1904F.O.

ويافا والقدس؛ ولكن الألمان لم يتمكنوا من رفع المستوى الاقتصادي والثقافي والروحي لسكان المستوطنات، لكونها أقيمت على أراضٍ يزرعها الفلسطينيون.

كذلك ناقشت الدراسة الخلافات الصهيونية بين التيارات السياسية والعملية التي وُظفت وأديرت لخدمة الأهداف الصهيونية، فكان واضحًا خلال المؤتمر الأول أن هرتسل لم ينكر الحاجة الصهيونية إلى ذلك، لكنّه ارتأى أن يمنح الأولوية لإرساء الأسس التنظيمية للمنظمة الصهيونية أولًا، ومن ثمّ إقامة المؤسّسات المنبثقة عنها ثانيًا، (8) إلى جانب الخلاف الحادّ بينه وبين هيرمان شاپيرا (صاحب فكرة الصندوق)؛ إذ إنَّ الأخير كان من أعضاء هواة صهيون، وكان هرتسل معارضًا لنشاطها الاستيطانيّ، القائم على جمع الصدقات، واعتبره تبيدًا للموارد الصهيونية، وأنّ مصيره الفشل، وكان لديه اعتقاد باستمرار صلة شاپيرا بهواة صهيون، المعارضة أيضًا لنشاطه السياسيّ ومساعيه لإقامة مشروع الاستيطانيّ من خلال البراءة العثمانية، كما لم يطرح مشروع الكيرين ضمن برنامج المؤتمر الصهيونيّ الثاني عام 1898م؛ بسبب تفاقم الخلافات التي نشبت بين التيارات الصهيونية السياسية والعملية بين هرتسل ومؤيديه (وعلى رأسهم ماكس نوردو) والصهيونيين الروس (بزعامه حاييم أوسشكين) حول إستراتيجية العمل الاستيطانيّ الواجب اتّباعها، وكيفية استثمار الأموال الصهيونية، والحصول على ضمانات سياسية دولية بالسيادة على منطقة جغرافية معينة؛ لتبدأ عملية تهجير اليهود إليها، ورفض تسلّهم لفلسطين بحجة خلق وقائع عملية تُعزّز الوجود الصهيونيّ؛ لأنّها سترفع أسعار الأراضي ممّا يؤدي إلى صعوبة الحصول عليها -ولذا طالب بإيقافها.

أهمّ الاعتراضات التي واجهت المقترح في المؤتمر رغبته بعض المندوبين في أن يشمل عمل الصندوق أيّ مكان يمكنه الوصول إليه لافلسطين فقط، أي إنهم وضعوا نصب أعينهم تحقيق الفرضيات الصهيونية كمشروع إقامة إسرائيل الكبرى؛ فقد أكدّ بودنهايمر وجوب اختيار المكان المناسب لعمل المؤسّسة، فجرت تحديد شراء الأراضي وحصصها في فلسطين والمناطق المجاورة، ولكنّه لم يحدّد ماهية المناطق المجاورة أو المتاخمة بالمفهوم الصهيونيّ، وانتهى الأمر بتفسيرها بمناطق سوريا وتركيا الآسيوية التي شملت العراق آنذاك وشبه جزيرة سيناء.

كان يهود الولايات المتحدة الأمريكية المتبرّع الأول للكيرين كاييمت، إذ بلغت قيمة تبرّعاتهم 31,205,999 جنيهًا إسترلينيًا، بينما بلغت ميزانية نفقاتها حتى نهاية عام 1948م 31,100,184 جنيهًا⁽⁹⁾، أي بما يعادل ميزانية حكومات قائمة بذاتها في تلك الفترة⁽¹⁰⁾.

أوضحت الوثائق الأرشيفية والتقارير البريطانية مدى حرص حكومة الانتداب على تطويق وامتصاص حالة الغضب الفلسطينيّ من بيع أراضي الملاكين الغائبين للكيرين، الأمر الذي أسفر عن استمرار طرح قضاياهم لأكثر من ثلاثين عامًا لدى حكومة الانتداب، ومنها أراضي معلول التي بلغت مساحتها 1,600، ويسكنها 64 عائلة رفضت الخروج منها وقبول تعويضات مالية، وشكّلت الحكومة لهم اللجان لحلّ الخلاف بينهم، وكان من ضمن التسويات عدم قبول

(8) Esco Foundation for Palestine: A study of Jewish, Arab and British Policies, , Yale University press, 1947, Vol. 1. P.339

(9) Report on the activities of the Keren Kayemeth Leisrael, Jewish National Fund, for the period Sept. 1946 to Aug. 1951, Jerusalem, 1951, P.44

(10) فيشباخ، مايكل (2013): سجلّات السلب، أملاك اللاجئين الفلسطينيين والصراع العربيّ الإسرائيليّ؛ دراسة في الأرشيفات الرسمية والمراجع الدولية، ط1، الدراسات الفلسطينية، رام الله، ص87.

الكيرين الحصول على 5,000 دونم خارج مدينة حيفا مقابل تلك المساحة، وحتى بعد أن أمرت محكمة الأراضي بنزع الأرض رفضوا الخروج إلى أن وقعت حرب عام 1948م وطُردوا منها⁽¹¹⁾.

أما أراضي وادي الحوارث، فحين لم يتمكن أهلها من دفع رسوم تسجيلها، عرضتها السلطات العثمانية للبيع بالملزاد العلني فاشتراها اللبناني أنطون الطيان وأشقأؤه، بمساحة 32,000 دونم سجّل منها 5,350 دونماً، بينما لم تسجّل بقية الأرض حينما لم يدفعوا رسوم الطابو وتهربوا من دفع الضرائب، في الوقت الذي تعرّضوا فيه لضائقة مالية، فأقدم أنطون الطيان على رهن تلك المساحة لدى أحد التجّار الفرنسيين (ويدعى هنري أسترانجان) مقابل 12 ألف جنيه، فتنازلا لتاجر عن جزء من الرهينة لليهودي إسحق إيريا، كما نقل إيريا حقوقه إلى ج. أ. فروتيجر وحاييم فاليرو ومنحهم حقّ المطالبة بديونه، وأدّت وفاة هنري أسترانجان إلى نقل الرهن إلى وريثته ماريا أسترانجان. (12)

إزاء ذلك، قدّم ممثلون عن فروتيجر وفاليرو طلباً لمحكمة نابلس في عام 1923م لبيع الأرض المرهونة، إلا أنّ طلبهم رُفض، ثمّ تقدّم آل الطيان بطلب إلى المحكمة لإصدار قرار حول تسهيل عملية تسجيل الرهن، فصدر القرار في أبريل عام 1926م بإبطال الرهن لكون الراهن لا يقيم في فلسطين، وإلزامهم بإرجاع مبلغ الرهن، أو القبول ببيع الأرض بالملزاد العلني. وحين لم يستطع الطيان تسديد ثمن الأرض، عرضتها المحكمة للبيع بالملزاد العلني، فاشتراها يهوشوع حناكين. وقد أوردت الصحف الفلسطينية، على مدار عدّة أعوام، التفاصيل الدقيقة لمأساة وادي الحوارث، وعملية الابتزاز الذي مارسه الكيرين للوصول بصفقة وادي الحوارث إلى المحكمة وبيعها بالملزاد العلني، لأنّه كان يدرك تماماً أنّه لن يستطيع الحصول على أراضي الوادي إلا بالاتّفاق مع حكومة الانتداب (13).

وبحسب وثائق الصهيونية، زادت مبيعات اليعشوف اليهودي القديم وأملاك اليهود الألمان للكيرين كاييمت بفعل ثورة عام 1936م، لتنتقل معظم أراضي أولئك إلى جانب أملاك أصحاب الرأسمال الخاص إلى الكيرين بأسعار زهيدة في القدس ويافا وحيفا⁽¹⁴⁾، وكان إعلان الكيرين عام 1940م الوصاية على أملاك الغائبين بمثابة إعلان سيطرة تامّة على أراضي اليهود الذين هجروا فلسطين؛ وخلال تلك العملية نُقلت ملكيّة شركة هيمنوتا خلال عامين 1945-1946م مساحة 32,000 دونم، بما فيها الملعب الألمانيّ في القدس الذي تبلغ مساحته 114 دونماً، فكان بمثابة أرضيّة لقانون أملاك الغائبين الذي سُنّ عام 1950م.

أوردت الصحف الفلسطينية مقالاتها وتساؤلاتها اليومية عن أوضاع فلسطين وأحوال أهلها، وشنت هجمة كبيرة ضدّ السماسرة، فتساءلت جريدة "فلسطين" بشأن الدور المشبوه الذي قام به سماسرة مدينة حيفا: "فأين هيئاتنا الوطنية؟"،

⁽¹¹⁾ The Zionist Archives: Mallul6/K,P-10/928,P.176,177,A Survey Of Palestine, prepared in Dec.1945and Jan 1946 for the information of the anglo American committee of inquiry ,Jerusalem, Printed by the government printer,1946.VOL.1,P.376 .

⁽¹²⁾ سجّلات محكمة يافا الشرعيّة رقم 148 سنة 1895م

C.O/733/190/77182-Wedi elhawarth land form high commissioner to lord passifild, ist marchm1930,p2-6

⁽¹³⁾ الجامعة العربيّة، ع 475، 27 /11/1930، ص2، جريدة فلسطين، ع1120، 28 /9/1928م، ص1.
- n Application for transfer of land :Rabbi Meir Barlin Keren Kayemeth Leisrael,Blumenfeld1946.28/ 855⁽¹⁴⁾،
,20/48/1/294.P23-25
Application for transfer of land :KerenKayemeth Leisrael,Blumenfeld1946433/2048/857/15-n.pp.3-5

وتساءلت صحيفة "الكرمل" أيضًا: "من الذي يعمل على تطبيق وعد بلفور إداة؟ الإدارة البريطانية أم السماسرة من وجهائنا وزعاماتنا؟" وتؤكد الكرمل قائلة: "لم نسمع أي عربي اشترى أرضاً بيسان أو ضواحيها مطلقاً في هذه الأوقات الحرجة، بل كل شهر نرى وكلاء "حناكين" يغررون ببذو بيسان ليقعوا على عقود بيوع في دائرة الطابو حيث يبيع أرضه ويعود لبيته بجرمته وحاملاً لأهله جواز الرحيل من فلسطين"، وأظهرت الصحف عمليات البيع بالتزوير، منها أن شخصاً من عشيرة البشاتوة كان يملك أرضاً مساحتها مئة دونم وسعيد أفندي رئيس فرع مؤتمر الشباب يملك أرضاً مساحتها 75 دونماً قام السماسرة ببيعها دون علم أصحابها للصهيونيين ونظموا وكالات دورية في طبريا وأحضرها إلى كاتب العدل أشخاصاً غير حقيقيين وادّعوا أنهم هم أصحابها، وطُوبت الأرض على ذلك الأساس، كما كشفت الصحف محاولات الكيرين الخارجية للحصول على 90 دونماً من أراضي البطيحة السورية عام 1933م⁽¹⁵⁾.

شكّلت الصحف الفلسطينية منبراً إعلامياً عبّرت فيه عن آراء وردود الفعل تجاه الصهيونية، وزيادة الوعي، فدعت الرأي العام الفلسطيني إلى تشكيل جمعيات لشراء الأراضي والحفاظ عليها وأشارت أنه "لا بد أن يأتي يوم يكون لهم في الأراضي الفصل"، وحدّرت من خطورة بيع الأراضي للمهاجرين الصهيونيين بفعل طرحها بالميزاد العلني بصورة مستمرة ومفتعلة، حيث ركّزت على قضية استثمار الأراضي الأميرية التي سعى الكيرين للسيطرة عليها باعتبار أن هذا الاستثمار هو المدخل الأساسي لزيادة الملكية الصهيونية، ونقلت الصحف أخبار عمليات الشراء وإشاعات البيوع المتزايدة ومفاوضات السماسرة، وعملت على الكشف عن أسماهم ومدى تورّطهم⁽¹⁶⁾.

أن أكون باحثة فلسطينية

أن أكون باحثة فلسطينية يعني أن أجتاز الحدود بين مدينتي وبلد دراستي⁽¹⁷⁾ أربعة أيام متواصلة في الطريق بين إجراءات أمنية مشددة، نتعرّض خلالها لأشدّ أنواع الإذلال والمعاملة اللاإنسانية. يعني ذلك أن أكون باحثة في جامعة مصرية، تدافع فيها عن الهوية الفلسطينية هوية الصمود، وتنفي كل ما قيل بشأن أن أهلنا قد فرطوا بشبر من أرضهم، وتجادل لتنفي روايات إسرائيلية ترسّخت في عقول بعض العرب، لتؤكد أن ثوابتنا لم تتبدل على الرغم من مرور أكثر من مئة عام على المشروع الصهيوني. أن أكون باحثة فلسطينية يعني أن أوكد لزملائي العرب، من الكويت والعراق ولبنان، أن قضيتنا لم تكن السبب في ضياع أوطانهم على نحو ما تروج قلة منهم. لذا، أنا أكتب لأهزم الرواية الإسرائيلية الظالمة؛ إذ لا رواية رسمية معتمدة عالمياً أو إقليمياً عن تاريخ فلسطين المعاصر؛ وذلك أنه ثمة تقصير شديد في طرح الرواية الفلسطينية عالمياً وتحدّي الرواية الصهيونية لها. أكتب لكي نستمر في الكتابة؛ لأننا أصحاب وطن وأرض وتاريخ. أكتب حتى نصل إلى حلّ لقضية فلسطين، كي نكتب بعدها عن ياسمين بلادي.

*إلهام جبر شمالي باحثة من غزّة وطالبة دكتوراة في كليّة الآداب - جامعة عين شمس - جمهورية مصر العربية.

⁽¹⁵⁾ الكرمل ع 1743 11/2/1933، ص4؛ فلسطين ع 1425، 5/5/1933م، ص2.

⁽¹⁶⁾ فلسطين، 9/9/1924، ص1، 26/3/1930، ع 57، ص3، الجامعة الإسلامية 6/10/1932 ع 78، ص1.

⁽¹⁷⁾ غزّة إلى جامعة عين شمس.

ما خلف الستائر: المعرفة، المواقف والسلوكيات الجنسية لدى طلبة الثانوية

الفلسطينيين في إسرائيل

رائفة جبارين*

ملخص البحث

الجنسانية، بوصفها جانباً مهماً من صحة وتطور الشباب، جرى تناولها في دراسات عدة وفي المجتمعات المختلفة حول العالم. في إسرائيل، معظم الأبحاث المتعلقة بجنسانية الشباب قد أُجريت في المدارس الثانوية الإسرائيلية (اليهودية)، وأهملت تماماً الشباب الفلسطيني. في دراسة دولية عن سلوكيات المراهقين الصحية، بما في ذلك السلوك الجنسي، والتي أُجريت في جميع أنحاء إسرائيل في السنوات 1997-2009، أُغفل المراهقون الفلسطينيون في إسرائيل تماماً من أسئلة البحث المتعلقة بالصحة الجنسية. وهكذا هو الشأن في معظم الدراسات الأخرى من دراسات أكاديمية وغيرها. من هنا، وابتغاء جسر الفجوة المعلوماتية بشأن العوامل المؤثرة على الصحة الجنسية لدى الشباب الفلسطيني في إسرائيل، ترمي هذه الدراسة: (1) إلى فحص المعرفة والمواقف والسلوكيات الجنسية لدى طلبة المدارس الثانوية العربية الإسرائيلية؛ (2) إلى تطوير إطار نظري، ملائم ثقافياً ومجتمعياً، من أجل استخدامه أداةً للتعقب بمدى المعرفة والمواقف والسلوكيات الجنسية لدى الطلبة.

سينفذ البحث بالاعتماد على المنهجية البحثية المعتمدة على المشاركة المجتمعية (Community Based Participatory Research- CBPR)، وستُجمع المعطيات عن طريق استمارة ستوزع لعينة عنقودية من طلبة وطالبات الصفوف العاشرة والحادية عشرة في المدارس الثانوية العربية، مع المحافظة على سرية قصوى. وبالإضافة إلى ذلك، سيعتمد البحث إطاراً نظرياً خاصاً طورته الباحثة، في سبيل مسح جميع المؤثرات وفحص التفاعلات في ما بينها لتعميق الفهم وإدراك العوامل الأكثر تأثيراً على صحة الشباب الجنسية، بغية بناء برنامج إرشاد ملائم مجتمعياً وثقافياً لمجتمعنا الفلسطيني.

توطئة

اهتمامي الأولي بمواقف وسلوكيات المراهقين الجنسية نبع من كوني امرأة فلسطينية، وممرضة مهنية، وأماً لثلاثة أولاد، الأصغر من بينهم ابنة في سن المراهقة. هذه الأمور مجتمعةً قادتني إلى الموضوع البحثي لأطروحتي لتبيل اللقب الثالث، الذي يتناول الصحة الجنسية لدى الشباب الفلسطيني في إسرائيل. للجنسانية -وهي جانب مهم من حياة كل إنسان- أبعاد جسمانية عاطفية اجتماعية ثقافية. يشكل المراهقون شريحة مجتمعية مهمة عليها يقوم مستقبل

الشعوب. بينما يشكّل الأطفال والشباب 20 % من سكّان العالم، يشكّل الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين سنّ الثانية و سنّ الرابعة والعشرين (2-24) ثلثَ السكّان الفلسطينيّين في إسرائيل (Central Bureau of Statistics, 2016). خلال مرحلة المراهقة، تحدّث تغيّرات سريعة تؤثر على سلوك المراهق الجنسي والنفسي والجسدي والغذائي والعقلي والاجتماعي. وهي تطوّرات طبيعيّة وإيجابية في صحّة ورفاهيّة كلّ إنسان تتأثّر بعوامل مختلفة، من بينها عوامل جسمانيّة وأخرى نفسيّة واجتماعيّة وسياسيّة وثقافيّة وأخلاقيّة ودينيّة وروحانيّة (Germain, 2015).

فماذا يعرف شبابنا عن الجنس والجنسانية؟ ما هي مواقفهم المتعلقة بالموضوع؟ وما هي سلوكياتهم الجنسانية؟ وما هي العوامل الأكثر تأثيراً على صحّتهم الجنسانية؟ كلّ تلك أسئلة تُطرح في عصر يعيش فيه الشباب في عالم معلوماً مفتوح، منكشفين لكمّ هائل من المعلومات المتاحة بلا حدود، وفي كثير من الأحوال دونها مراقبة، وهو ما عمّق الفجوة العمريّة بينهم وبين جيل الأهل. لذا، سيقوم هذا البحث بفحص وتقييم التأثيرات الخارجية (العائلة؛ الأصدقاء؛ المدرسة؛ الدين؛ الإعلام؛ السياسة؛ وسائل الاتصال الإلكترونيّة)، وكذلك التأثيرات الداخليّة (الجسمانيّة؛ النفسيّة؛ الإدراكيّة)، على المتغيّرات التابعة الثلاثة: المعرفة والمواقف والتصرّفات الجنسانية لدى الشباب.

حول التربية الجنسية:

عندما يُطرح موضوع الجنسانية لدى الشباب، غالباً تتناول الأدبيات السلوكيات الجنسيّة ومخاطرها في أساس ما تتناول. لكن الجنسانية تتعدّى التغيّرات والرغبات الجسمانيّة لتشمل كذلك أبعاداً أخرى كالبعد العاطفي، والهويّة الجندريّة، والثقة بالنفس، والقدرات الإدراكيّة، والقدرة على اتّخاذ القرارات وغيرها (Tolman & McClelland, 2011). لم يحظ هذا الجانب المهمّ من صحّة الشباب في المجتمع الفلسطينيّ بالاهتمام الكافي من قبل جهاز التربية والتعليم، والأهل، والباحثين ومتمخذي القرارات في السلطة وفي المجتمع. لم يشمل البحث، الذي تُجريه المنظمة للسلوكيات الصحيّة لطلبة المدارس (HBSC) كلّ أربع سنوات، الطلّاب الذين في المدارس العربيّة على مدار السنين. لم يحدث ذلك إلّا في عام 2014، إذ للمرّة الأولى شملت الدراسة عيّنة من طلّاب الصفّ العاشر في المدارس العربيّة، وقد عاين البحث السلوكيات فقط، دون التطرّق إلى المستوى المعرفي والمواقف المتعلقة بالصحة الجنسيّة (HBSC, 2016). إضافة إلى ذلك، تجاهلت هذه الدراسة تماماً التأثيرات النابعة من المحرّمات الثقافيّة بشأن كلّ ما يتعلّق بالجنس في المجتمع العربيّ المحافظ. قد تكون أسئلة المسح المناسبة للطلّاب من مجتمع غربيّ غير مناسبة (وتلقى إجابات غير صحيحة) للطلبة الذين من ثقافات لها خصوصياتها الثقافيّة كالمجتمع الفلسطينيّ. هذا التجاهل يظهر واضحاً أيضاً في البرامج المُعدّة للتربية الجنسيّة لطلبة المدارس، حيث لم تُلاءم مضمونها لخصوصيّة المجتمع الفلسطينيّ، وهو ما يشكّل عائقاً لتنفيذها من قبل المعلّمين والجهاز التربويّ، ويترك الطلبة بلا توجيه وإرشاد ملائمٍ لحضارتهم ولتقاليد مجتمعهم.

الإطار النظريّ

هناك أطر نظريّة عدّة لفهم العلاقة بين المواقف والتأثيرات الخارجية على السلوكيات الصحيّة، بغالبيتها طوّرت وأثبتت ملائمته للمجتمع الغربيّ. لذا، ثمة حاجة ماسّة إلى تطوير إطار نظريّ ملائم ثقافياً واجتماعياً لتقييم المؤثرات والتحديات التي تواجه الشباب في مجتمع محافظ واقع في مرحلة انتقاليّة، يتخبّط بين عاداته وتقاليد، من جهة، والانكشاف المكثّف للعالم الواسع، من جهة أخرى. في هذا البحث، نقوم باقتراح إطار نظريّ يعتمد على "نظريّة النظم

الإيكولوجية" (Ecological Systems Theory). تبحث هذه النظرية أساساً في تطوُّر الطفل، ضمن أو داخل سياق نظم العلاقات التي تشكّل بيئة الفرد، كالأُسرة والبيئة والمجتمع والعوامل العالمية (Bronfenbrenner, 1989). الإطار النظريُّ المقترح يطرح فكرة توزيع العوامل المؤثرة على الصحة الجنسانية للشباب، لمؤثرات خارجية كالبيئة البيئية، والمدرسة، ومجموعة الأصدقاء، والعادات والتقاليد، والدين، والإنترنت وعوامل سياسية. بينما تشمل المؤثرات الداخلية العوامل النفسية والعاطفية والإدراكية لدى الشاب. التجديد الإضافي في الإطار المقترح هو أن التفاعلية بين هذه النظم ليست بطبقية أو تراثية. فمن الممكن، في عالمنا اليوم، أن تكون المؤثرات العالمية -كالإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي- ذات وقع أكبر بكثير من المؤثرات الأسرية أو المجتمعية.

منهجية البحث

سُئلَ من منهجية البحث وسيرورته لخصوصية المجتمع الفلسطيني المحافظ¹⁸ الذي يمرّ بمرحلة انتقالية. ولذا، سينفذ البحث بالمنهجية البحثية المعتمدة على المشاركة المجتمعية (CBPR). وهي منهجية بحثية تأخذ بعين الاعتبار المجتمع المحلي في الحقل البحثي كشريك ومساهم فعّال في المسار البحثي. ثبتت نجاعة هذا الأسلوب البحثي على نحو خاص في الأبحاث التي تتناول مواضيع حساسة، بهدف ملاءمة منهجية البحث وأدواته وسيرورته للحقل البحثي، ثقافياً ومجتمعياً (Rowley et al., 2015). في هذا البحث، جرت الاستعانة بمجموعة مستشارين مجتمعية ذوي تجربة نظرية وعملية في موضوع جنسانية الشباب، ابتغاء ملاءمة منهجية البحث في هذا الموضوع الحساس لخصوصية مجتمعنا المحلي. المجموعة شملت ناشطين جماهيريين من جمعية البيت المفتوح ومنتدى الجنسانية، ومعلمين، وأهالي، ومدير مدرسة، وعامل اجتماعية، ومستشارين تربويين، وممرضة، ورجل دين، وشباناً في سن الثامنة عشرة (18). بمساعدة مجموعة المستشارين المجتمعية، واسترشاداً بالإطار النظري المقترح، الذي أنشئ في هذا البحث، وُضعت استمارة البحث الملائمة ثقافياً ومجتمعياً، حول الصحة والحياة الجنسية لدى الشباب.

أهمية البحث

هذه الدراسة هي أول محاولة للقيام بمسح شامل لصحة المراهقين الفلسطينيين الجنسانية من مستوى معرفي، ومواقف وسلوكيات، باستخدام استبيان مناسب ثقافياً ومستمد من مجموعة استشارية مجتمعية، مع مراعاة سياق المجتمع العربي المحافظ. كذلك يرمي البحث إلى تطوير إطار نظري، ملائم ثقافياً ومجتمعياً، يشمل المؤثرات الخارجية كالبيت، والمدرسة، ومجموعة الأصدقاء، والعادات والتقاليد، والدين، والإنترنت والسياق السياسي، والمؤثرات الداخلية من نفسية وعاطفية وإدراكية، بغية استخدام هذا الإطار أداةً للتنبؤ بالسلوكيات الجنسية لدى الشباب في أي مجتمع محافظ ينكشف عن طريق العولمة والإنترنت لقيم ومفاهيم جديدة.

قبل الخاتمة

المجتمع الفلسطيني في إسرائيل، الواقع في مرحلة مجتمعية انتقالية، يتخبط بين التقليد والحداثة، ولا سيما في ما يتعلّق بالعلاقات داخل العائلة وبين الأجيال (Azaiza, 2013). فالمجتمع العربي، والأهل، وجهاز التربية والتعليم، ما

¹⁸ تجدر الإشارة إلى أنّ هناك أثرًا كبيرًا للنكية والممارسات السياسية للدولة لغاية اليوم على تكريس المنظومة المجتمعية الذكورية والحفاظة. لا تتسع الورقة الحالية لتناوله، ولكن في سبيل الاطلاع على ذلك في الإمكان مراجعة المصدر التالي: Abdo-Zubi, 1987, Hasan, 2002.

زالوا متوقعين في العادات والتقاليد المجتمعية التقليدية والمحافظه بغالبيتها، بينما يحيا الجيل الجديد في العالم "التكنولوجي" الحديث، منكشفاً لعالم معلوماتي مفتوح ومنعدم الحدود والقيود عن طريق الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي، مما جعل فجوة الأجيال أكبر وأعمق بين الشباب وأهلهم ومعلميهم (Abu-Asbah, 1998). وتعمق هذه الفجوة على نحو خاص عند الحديث عن الجنس والجنسانية التي ما زالت في عداد "التابوهات" الاجتماعية؛ وفي المعتاد يواجه الأهل والمعلمون صعوبة في التعامل مع هذا الموضوع الحساس. وحتى هؤلاء الذين يعنون أهمية التوعية الجنسية لا تتوافر لديهم القدرات والأدوات للقيام بهذه المهمة الصعبة (Saabneh, 2015).

وماذا بعد؟

نصو لتوسيع الإطار النظري المقترح لمجتمعات أخرى تعيش بين التقليد والحداثة، وتعاني من فجوة الأجيال العميقة بين الأهل والأبناء، كالأقليات الإثنية الأخرى حول العالم، والمهاجرين ومجتمعات اللاجئين في الغرب. كذلك ستجري مشاركة نتائج الدراسة مع أولياء الأمور والمعلمين ووزارة التربية والتعليم والجهات التي تعمل مع المراهقين الفلسطينيين وتقديم الرعاية لهم، ولا سيما في مجال الصحة الجنسية، على أمل أن تُزاح الستائر ويعطى هذا الجانب الهام من صحة كل مراهق حقه، وأن تسهم هذه الدراسة في تأسيس برنامج إرشاد وتوعية جنسانية للشباب ملائم للمجتمع الفلسطيني وخصائصه، ليكون مشروعاً مهنيّاً مدعوماً ومؤسساً على معطيات بحثية مثبتة.

أبو عصبه، خالد. (محرّر). (1998). الأولاد والشبيبة العرب في إسرائيل - من الوضع القائم نحو جدول أعمال مستقبلية. القدس: جوينت - معهد بروكديل.

Azaiza, F. (2013). Processes of conservation and change in Arab society in Israel: Implications for the health and welfare of the Arab population. **International Journal of Social Welfare**, 22(1), Pp15-24.

Bronfenbrenner, U. (1989). Ecological systems theory. In R. Vasta (Ed.), **Sex theories of child development: Revised formulation and current issues** (Vol. 6 ed., pp. 187-249). Greenwich, Connecticut: JAI Press.

Central Bureau of Statistics. (2016). Population by; Group, religion, sex and age. Retrieved in (July 13, 2018) from http://www.cbs.gov.il/shnaton67/st02_03.pdf

Germain, A. (2015). Commentary: Promoting healthy adolescent development through comprehensive sexuality education. *Global Public Health*, 10(2), Pp. 222-224.

Abdo-Zubi, Nahla (1987). *Family, Women and Social Change in the Middle East: The Palestinian Case* (Toronto: Canadian Scholars' Press).

Hasan, manar. 2002 "The politics of honor: patriarchy, the state and the murder of women in the name of family honor", *Journal of Israeli History: Politics, Society, Culture*. 21, issue 1-2, Pp 1-37.

HBSC Israel. (2016). **Health behaviors in school-aged children (HBSC) A world health organization cross-national study in Israel (1st ed.)**. Jerusalem: the Israeli Ministry of Health.

. . . Cargo, M. (2015). .Rowley, K., Doyle, J., Johnston, L., Reilly, R., McCarthy, L., Marika, M., Strengths and limitations of a tool for monitoring and evaluating first peoples' health promotion from an ecological perspective. **BMC Public Health**, 15(1), 1215.

Saabneh, A. (2015). Ethnic health inequalities in unequal societies: Morbidity gaps between Palestinians and Jews in Israel. **European Journal of Population**, 31(4), Pp. 445-466.

Tolman, D. L., & McClelland, S. I. (2011). Normative sexuality development in adolescence: A decade in review, 2000–2009. *Journal of Research on Adolescence*, 21(1), Pp. 242-255.

* رائفه جبارين: طالبة دكتوراه في كلية التمريض بجامعة حيفا، حاصلة على اللقب الأول والثاني في ادارة المرافق الطبية وممرضة مؤهلة.

الجماعات الإسلامية في المجتمع الفلسطيني في إسرائيل وتوفيرها لخدمات اجتماعية للأطفال

حنين مجادلة*

تلخيص

تشير الكتابات الأدبية أنّ للدين والمنظمات الدينية في دول عديدة تأثيراً كبيراً على الحيزين العام والخاص منذ القدم. وعلى الرغم من تعدّد هذه الأبحاث، نرى أنّ النزر اليسير منها فقط يتطرق إلى موضوع تأثير الجماعات الإسلامية على توفير الخدمات الاجتماعية؛ إذ ليس ثمة توثيق وأبحاث كافية تصف هذه المشاركة بتوفير خدمات اجتماعية في الداخل الفلسطيني.

يهدف هذا المقال إلى عرض وتتبع طرائق وإستراتيجيات تعاطي الجماعات الإسلامية مع المجتمع العربي في إسرائيل في حيز توفير الخدمات الاجتماعية. لهذا الغرض سوف يتناول الجماعات الإسلامية في باقة الغربية نموذجاً؛ إذ سيقوم بوصفها، وتتبع طريقة عملها، وبتبيان خصائص وميزات الخدمات التي تقدّمها، والصلة بينها وبين غيرها من المنظمات المجتمعية، وبخاصة المؤسسات الحكومية منها، وذلك على ضوء التحديات الجمة التي تواجهها هذه الجماعات.

سوف يتناول المقال وصف دراسة حالة عن عمل جماعتين مسلمتين في مدينة عربية في إسرائيل (باقة الغربية): الجماعة الصوفية والحركة الإسلامية (الإخوان المسلمين). تجدر الإشارة إلى أنّ هذا المقال هو جزء من بحث شامل استغرق عمله ثلاث سنوات، وجزء من رسالة لنيل الدكتوراة.

اعتمدت الدراسة منهجية البحث النوعي من خلال مقابلات عميقة مع 60 مشتركاً ومشاركة من البالغين والأطفال من سگان باقة الغربية.

أشارت نتائج البحث المركزية إلى حضور وتأثير كبيرين للجماعات الإسلامية، حيث تنشط هذه الجماعات في الحيزين السياسي والاجتماعي كما هو حال الجماعات الإسلامية في الشرق الأوسط. وعلى الرغم من التشابه في النشاط وظروف تأسيس الجماعات في سائر الدول العربية، تنفرد الجماعات الإسلامية في البلاد بأنّها الوحيدة التي تطوّرت، وما زالت تعمل تحت سلطة غير مسلمة بل معادية أحياناً. ويبدو هذا جلياً بخصائص عمل الجماعات هذه؛ فقد ركّزت هذه الجماعات جهودها بمساعدة الطبقة العربية المستضعفة في البلاد، وأنشأت مؤسسات رفاة تقوم مقام الدولة بوظائفها وتقوم بتوفير الخدمات الاجتماعية ذات الطابع الديني والقومي للفئات المهمشة بصورة عامّة، والأطفال بصورة خاصّة، نظراً لتعامل الدولة السيئ مع المواطنين العرب وانتهاج سياسة التمييز ضدّهم، وعلى ضوء فشل حكومات إسرائيل المتعاقبة في تطبيق التزاماتها تجاه السگان العرب الفلسطينيين في إسرائيل.

توطئة نظرية

ترتبط الأبحاث المتعلقة بالدين بحقول معرفية كثيرة، من بينها علم الاجتماع والفلسفة وعلم النفس والأنثروبولوجيا وغيرها. لتشعب هذا الموضوع، يركز محور هذا البحث على فحص علاقة الجماعات الإسلامية بالمجتمع، وذلك عبر معاينة ميدان توفيرها لخدمات اجتماعية للفلسطينيين في إسرائيل.

توصلت أبحاث عالمية كثيرة إلى أن الدين، متجلبًا في مؤسساته أو جماعته، قد قام بدور مهم في تطوير الخدمات الاجتماعية ودولة الرفاه في عدة دول، ويُعتبر إحدى الآليات المهمة للتعامل مع الفقر والمشاكل الاجتماعية الأخرى (Cnan, 2002). بينما أشارت أبحاث أخرى إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث اعتبرت أن الدين والمعتقدات الدينية هي متغير يمكن أن يسهم في فهم الاختلافات وأوجه التشابه في السياسات الاجتماعية في مختلف البلدان (Leibfried, 1992؛ Ferrera, 1996)؛ إذ من الممكن للتوجه الديني أن يفسر بعضًا من تهيئة برامج السياسة الاجتماعية واتجاهات دولة الرفاه الاجتماعي (حسون، 2014).

هذا النقاش بشأن الدين ودولة الرفاه يُعتبر ذا أهمية كبرى في السياق الفلسطيني في الداخل؛ وذلك لأسباب عدة، من بينها عدم الفصل التام بين الدولة والدين في إسرائيل، والانشغال المستمر في نوع العلاقة بين الدين والدولة وبين الدولة والأقلية الفلسطينية فيها، ولا سيما على ضوء التأثير البالغ للمجتمع المدني لتخلف الدولة عن توفير الخدمات الاجتماعية (Hetsroni & Remennick, 2001). فقد كان للمؤسسات الدينية الإسلامية دور مفصلي منذ نشأة الدولة العبرية؛ إذ قامت بسدّ الفجوات ومحاولة توفير الخدمات عن طريق مؤسسات المجتمع المدني.

ينبغي أن نشير أن هنالك أنواعًا من المؤسسات الدينية: النوع الأول هو المؤسسات الرسمية التي تتبع لنظام الدولة وتشرف عليها الحكومة، كوزارة الأوقاف والشؤون الدينية. أما الثاني، فهو المؤسسات غير الحكومية، أي مؤسسات المجتمع المدني التي تقوم على خدمة الإسلام والفرد. في هذا الجزء من البحث، سأفحص دور الجماعات الإسلامية ومؤسساتها المدنية غير الرسمية في باقة الغريبة.

ركز البحث على أسئلة مختلفة، منها ما يتعلق بمدى مشاركة الجماعات الدينية الإسلامية في توفير الخدمات الاجتماعية للأطفال الفلسطينيين في إسرائيل، أو بالخدمات التي تقدمها هذه الجماعات للأطفال، أو بما يميز تلك الخدمات عن الخدمات المقدمة من إطار ديني آخر أو تلك المقدمة من قبل الدولة. كذلك تناولت الأسئلة نظرة الأطفال والشباب إلى مشاركة الجماعات الدينية الإسلامية في توفير الخدمات لهم.

منهجية البحث

تعرض المقالة جزءًا من بحث أوسع بإطار رسالة الدكتوراة في العمل الاجتماعي. استخدم البحث طريقة البحث النوعي لفحص الظاهرة، وذلك عبر استخدام المقابلات العميقة نظرًا إلى قلة الأدبيات في هذا الموضوع، ورغبةً في فهم الظاهرة الاجتماعية من خلال الاستماع إلى أصوات وتجارب ووجهات نظر الأفراد المشتركين في البحث، سواء أكانوا المنتفعين من الخدمات الاجتماعية الدينية أو موفريها والمبادرين إليها. هذه الطريقة من شأنها وصف الظاهرة وصفًا شموليًا وعميقًا.

شملت عينة الدراسة 60 مواطناً ومواطنة من سكان باقة الغربية اختبروا على نحو عشوائي، من بينهم قادة على المستوى المحلي وناشطون اجتماعيون مهنيون في مجال التعليم والرعاية الاجتماعية، وأطفال ويافعون من سن السابعة (7) حتى سن السابعة عشرة (17)، وأمّهات وآباء.

نتائج

يزودنا تحليل البيانات المتنوعة بمشهد مثير؛ فقد أظهرت نتائج الدراسة أن هناك أهمية وتأثيراً بالغين للجماعات الدينية الإسلامية على الحيز العام على العموم وعلى توفير الخدمات الاجتماعية بصورة خاصة. فقد أشارت نتائج البحث إلى أن الجماعات الإسلامية هي لاعب أساسي، بل إنها تحل محل المؤسسات الرسمية في أحيان كثيرة، وذلك من خلال تقديم مجموعة متنوعة من الخدمات التي تلبي احتياجات المجتمع في ميادين عدة، وتولي موضوع الخدمات المقدمة للأطفال اهتماماً خاصاً.

توصلت الدراسة إلى أن اهتمام هذه الجماعات ينصب في جوانب عدة تحيط بالطفل سنوات عديدة، وترافقه أحياناً كثيرة بعد بلوغه؛ إذ هي تقوم فعلياً بتوفير رعاية للأمهات، ومن ثم تلبي حاجيات بعض الأسر، وبخاصة إن كانت محتاجة، ومن ثم توفر أطراً تعليمية كالحضانات والمدارس والمخيمات والنشاطات غير المنهجية وخدمات أخرى. هذه النتائج توافقت نتائج أبحاث عربية وعالمية أخرى تشير إلى عمل الجماعات الدينية في فضاء الخدمات المجتمعية (Cnaan, 2002). لكن على الرغم من وجود هذا التوافق، تجدر الإشارة إلى خصائص الجماعات الإسلامية في البلاد التي ظهرت في هذا البحث، فهي تعمل في أحيان كثيرة من دون غطاء مؤسسي (وعلى وجه الخصوص غطاء حكومي)، ومن دون شراكات مع مؤسسات المجتمع المحلي حيث تطالب بعضها أصلاً بالعدول عن تقديم الخدمات على نحو واضح نظراً لإعلان الحكومة الإسرائيلية إخراج الحركة الإسلامية (الشق الشمالي) عن القانون استناداً إلى قانون الطوارئ الانتدائي (زريق، 2016)، مما يدفع بها إلى تقديم الخدمات بصورة غير علنية، أو بأقل مهنية مثل ما أشار المشاركون في البحث.

ثمّة أسباب كثيرة لنشاط الجماعات الإسلامية في مجال توفير الخدمات المجتمعية وفقاً لنتائج الدراسة؛ فقد أشار المشاركون في البحث، ولا سيما رجال الدين ومؤسسو الجماعات، إلى أن الواجب الديني هو أساس كل عمل. فإصلاح حياة الإنسان الآتية لا يقل أهمية عن إصلاح آخرته كما ذكر إمام أحد المساجد خلال مقابلاته، إذ أشار إلى قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾. وعلى ذلك، ترى هذه الجماعات توفير الخدمات مسؤولية مجتمعية من الدرجة الأولى ولبنة أساسية لبناء مجتمع سليم. هذه النتيجة مشابهة لما وجدته ريخس (2011) من خلال فحص دور جماعة الإخوان المسلمين؛ فحسب رأيه تحاول الحركة الإسلامية من خلال الخدمات التي تقدمها بناءً مجتمع بديل وقيادة تغيير مجتمعي في كل المجتمعات العربية.

إلى جانب الوازع الديني والمجتمعي، أشار المشاركون إلى أن الجماعات الدينية ترى خدماتها جسراً يساعدها على بناء علاقة مع الأجيال الجديدة، إذ تطمح من خلال ذلك أن تبني مجتمعاً ملتزماً بعقيدة الإسلام، وبالأخص على أثر التغيرات المجتمعية الكثيرة التي من شأنها أن تبعد الجيل الجديد عن هويته الدينية. غالبية المشاركين البالغين طالبوا

بتكثيف العمل المجتمعي، وأشادوا بعمل الجماعات الاجتماعي مع الأسر العربية الفلسطينية، مشيرين إلى أن الأسرة هي الخلية الأولى التي تسهم في تكوين المجتمع كما بينت كتابات عدّة (حلاوة ، 2011)، وبهذا فإن تماسكها هو بمثابة ضمان بقاء واستمرارية للمجتمع العربي الفلسطيني، ولا سيما في ظلّ الدولة العبرية؛ فمن وجهة نظر المشتركين، تحافظ هذه الجماعات على الهوية الجماعية للمجتمع العربي في ما أطلق عليه البعض التسمية "صراع البقاء".

على ضوء ما ذكر، من أهم أسباب تدخل الجماعات الإسلامية الفراغ الناجم عن فشل الدولة في تقديم الخدمات للمجتمع العربي الفلسطيني بما يشمل الأطفال، حيث يحصل المواطنون الفلسطينيون على أقل بكثير من حصّتهم المنصفة في المخصّصات والميزانيات، كما أنهم يعانون من ظواهر عدّة تُضعف مجتمعهم، كالعنف والفقر والبطالة وغيرها. تدعى إسبنيولي (2015) في كتابها أن الطفل العربي الفلسطيني في إسرائيل يعاني من تهيمش خدماتي كبير، وهو ما يؤدي إلى فجوة شاسعة بينه وبين نظرائه الأطفال اليهود في البلاد، ممّا يعيق تقدّمه مستقبلاً. هذه الفجوة - وفقاً لرأي المشتركين في البحث- تدفع الجماعات الدينية إلى أخذ زمام المبادرة، بل إلى التركيز على خدمة الأطفال وتوفير الخدمات غير المتوافرة أو غير المتاحة لهم؛ فعلى سبيل المثال كانت الحركة الإسلامية في باقة الغربية هي أول من بادر إلى توفير أطر تربوية للطفولة المبكرة في مطلع التسعينيات، وكانت الجماعة الصوفية من أول من قدّم النشاطات غير المنهجية للأطفال.

فعلياً، الاندماج والمبادرة لتوفير الخدمات للأطفال غير مفاجئ، نظراً لما يواجهه المجتمع العربي الفلسطيني في البلاد من تحديات هائلة، على صعد عدّة، كالوضع والمكانة الاجتماعيّين، والعلاقة بالدولة سياسياً وقانونياً؛ إضافة إلى تفشي ظواهر اجتماعية شائعة كظاهرة العنف والشرذمة والفقر (ميعاري، 2014). فالمفهوم الأيديولوجي الرئيسي للحركة الإسلامية مثلاً هو "الإسلام هو الحلّ". هذا الشعار فعلياً يجسّد الفلسفة كلّها: هناك أزمة، والحلّ يكمن في الإسلام، سواء أكان ذلك على مستوى الفرد أم على مستوى المجتمع، بل على صعيد البشريّة جمعاء.

من هذه النتائج نستنبط أن الجماعات الدينية قامت على نحوٍ ممنهج ببناء مساحة إسلامية رمزية وعملية تعمل بروح وقيم الدين الإسلامي، وتقدّم بديلاً لمؤسسات الدولة وبديلاً فعّالاً لبيئة علمانية بهدف إقامة مجتمع مستقلّ. هذا ينطبق على الهدف الرئيسي من وراء مشروع الحركة الإسلامية على نحو ما طرحه الشيخ رائد صلاح، آنذاك، في ما يتعلّق بإنشاء مجتمع عصامي يدير مؤسساته على نحوٍ مستقلّ وذاتيّ يدافع عن المجتمع إلى أن يتحرّر من ضغوط وهيمنة المؤسسة الإسرائيلية على المجتمع الفلسطيني في إسرائيل (علي، 2007).

أظهرت النتائج وجود اختلاف بين شتى الجماعات الدينية من حيث نوع ومستوى الخدمات من وجهة نظر متلقّيه، حيث قامت -على سبيل المثال- الجماعات الإسلامية الصوفية ومؤسساتها بالاهتمام بالتربية والتعليم على وجه الخصوص، وخصّصت اهتماماً كبيراً لتعزيز وتمكين المجتمع عامّة بما يشمل الطبقة القويّة فيه، بينما الجماعات التابعة للحركة الإسلامية صبّت اهتمامها في الفئات المستضعفة، ولا سيما العائلات والأطفال، وقامت فعلياً باستبدال مؤسسة الرفاه الاجتماعي، إضافة إلى إسهامها في بناء وتعزيز العائلة المسلمة وبناء الهوية الدينية والقومية من خلال برامج كثيرة.

من أهم ما تضمنه هذا البحث الصوت المسموع للمستفيدين، وهم الأطفال المشتركين في هذا البحث؛ إذ أعرب الأطفال واليافعون عن أهميّة المؤسسات الدينية بالنسبة لهم. فعلى الأغلب رأوا رجال الدين بوصلة، واعتبروا

الخدمات الاجتماعية المقدّمة عن طريق المؤسّسات الدينيّة مرجعيّة وحيدة على الأغلب، إذا احتاج الطفل مساعدة؛ فعلى سبيل المثال، أعرب أحد المشتركين عن رأيه قائلاً: "لقد واجهتني مشكلة كبيرة في الفيسبوك. لم أعرف لمن أتوجّه، ولم أعرف ممّن يمكنني أن أطلب المساعدة. وفي صلاة الجمعة توجّهت إلى إمام المسجد طالباً مساعدته، وذلك أنّي عرفته سابقاً في المخيم الصيفي، وكان قد ساعد أهلي كثيراً في بداية السنة الدراسيّة وقام بشراء كلّ اللوازم لي. لم أرغب بالتوجّه إلى المستشارية في المدرسة؛ لأنّها على علاقة مع المدير وأهلي. أمّا إمام المسجد، فكونه رجل دين يوجب أن يتكتم وأن يساعدني (على ما أظن)... فهو ساعدني سابقاً في بداية السنة المدرسيّة".

وعلى الرغم من نشاط الجماعات الإسلاميّة الواسع في مجال الخدمات الاجتماعيّة، ووجودها أحياناً لاعباً أساسياً وحيداً ليسدّ الفراغ الذي تركته الدولة، ومنافساً أحياناً للخدمات الشحيحة التي تقدّمها الدولة عن طريق مؤسّساتها، يبدو أنّ المعوقات لعملها كثيرة. أشار المشاركون في البحث إلى تخوّف المؤسّسة الحكوميّة من عمل الجماعات الإسلاميّة ومن أثرها على المجتمع العربيّ في إسرائيل. فقد فسّر المشاركون في البحث أنّ الخوف مرتبط بظاهرة الإسلامفوبيا (رهاب الإسلام) التي باتت ظاهرة عالميّة. كذلك أشار المشاركون إلى أنّ الجماعات الإسلاميّة تشكّل تهديداً مباشراً وغير مباشر على الدولة العربيّة، ولذا استعانت الدولة بالقانون بغية حظرها، وتحجيم عملها في الميدان العام، وضمان التحكّم بحياة الأقلّيّة العربيّة الفلسطينيّة في إسرائيل. فعلياً، تعمل الجماعات الإسلاميّة في ظلّ مراقبة دائمة وتهديد مستمرّ من قبل الدولة العربيّة، وبعلاقة تتسم بالقبول والصدام. على الرغم من خصوصيّة وضع الفلسطينيّين في إسرائيل كأقلّيّة، وعلاقة الجماعات الإسلاميّة المركّبة مع الدولة العربيّة، تشير الأبحاث العالميّة إلى أنّ العلاقة مع المؤسّسات الدينيّة شائكة في أغلب الحالات. تدّعي الوريمة بوعجيلة (2016) في بحثها أنّ للمؤسّسة الدينيّة علاقة معقّدة بالسلطة السياسيّة؛ فهي علاقة غير مستقرّة، ومتغيّرة بتغيّر موازين القوى بين الطرفين، وخاصّة بتغيّر السياسة الثقافيّة والاجتماعيّة المتتبّعة.

تعتبر نتائج هذا البحث نقطة انطلاق للبحث على نطاق أوسع، ويمكن لها أن تسهم في بحث مستقبليّ شامل يتطرّق إلى جماعات دينيّة أخرى، أو إلى فحص علاقة هذه الجماعات بالمؤسّسات المدنيّة والرسميّة المختلفة، إضافة إلى متابعة دور الجماعات الدينيّة المتغيّرة، وبخاصّة أنّ المؤسّسات والجماعات الدينيّة -وعلى وجه الخصوص تلك الإسلاميّة من بينها- تشهد عصرًا من حالات المدّ والجزر على ضوء العصر الحديث والعولمة وظاهرة الإسلامفوبيا.

أن تكوني باحثة فلسطينيّة

أن تكون باحثة، أصلاً، هو أشبه بسباق القفز عن الحواجز. وهذا السباق يكون مرّكباً أكثر -من وجهة نظري- إذا كان الباحث فلسطينيّاً، وعلى الأخصّ فلسطينيّة. فثمّة حاجز اللغة تارة، وثمّة حاجز السياسة والأخبار المتتابعة تارة أخرى. فكيف أفسّر لمرشدي عجز التأمّ عن الكتابة بعد أن فُتلت امرأة أخرى فلسطينيّة صباحاً؟ وكيف أفسّر عجزني عن الكتابة لأنني لم أستطع أن أصل إلى القرية التي أردت بلوغها، نظراً لإغلاق الحاجز؟ وكيف أفسّر عجزني عن اختيار مصطلح علميّ أو تسمية معيّنة كعربيّ /فلسطينيّ أو 48...؟

أن تكون باحثاً فلسطينياً يعني أن تعيش في ظلّ الهويّة والأحداث التي من الممكن أن تمنعك بثقلها عن الاحتفال بإنجازاتك أحياناً. أن تكون باحثاً فلسطينياً يعني أن تصاب بألم دائم لا تُشفى منه حتّى لو قدّمت رسالتك، وأن تتعارك على نحوٍ دائمٍ مع الكلمات -إذ لا وجود للغتك الأمّ.

أن تكون باحثاً فلسطينياً يعني أن تشعر بثقل المسؤولية؛ لأنّ الكتابة العلميّة والإنجاز العلميّ هما آليّة لتغيير مجتمعك نحو الأفضل. يعني أن تنهض من جديد كلّ يوم، لتدافع عن أحلامك المتناثرة بين قصاصات ورقية من الليلة الفائتة.

إسنيولي، نبيله. (2015) التعليم في مرحلة الطفولة المبكرة في المجتمع العربي الفلسطيني في إسرائيل. لدى: مرجليت ،زيف وافنان، مصاروه. (محررات). **الطفولة في المجتمع العربي في إسرائيل قضايا تعليمية وبحثية**. ص.ص. 29-58. إسرائيل: معهد موفت والقاسمي. (بالعبرية).

الوريمي بوعجيلة، ناجية . (2017،شباط). **المؤسسة الدينية والسلطة السياسيّة: من الولاء إلى المواجهة**. مؤسسة مؤمنون بلا حدود. مستقاة بتاريخ (03/02/2017)، من:

<https://www.mominoun.com/pdf1/2017-01/moassasa.pdf>

حاسون، شلومو. (2014). **الدين والدولة في إسرائيل - سيناريوهات محتملة**. واشنطن: معهد جوزيف وألما غيلدنهورن للدراسات اليهودية ، جامعة ميريلاند.

حلاوة ، باسمة. (2011). **دور الوالدين في تكوين الشخصية الاجتماعية عند الأبناء: دراسة ميدانية في مدينة دمشق**. **مجلة جامعة دمشق**، 27. ص.ص. 71-109.

ريخيس، ألي. (2011). **أسلمة الهوية العربية في إسرائيل: الحركة الإسلامية، 1972-1996**. لدى: ألي، ريخيس و اريك، رودنكسي.(محرران). **الأقليات المسلمة في البلدان ذات الاغلبية الغير المسلمة: الحركة الإسلامية نموذجاً**. كونراد اديناور : جامعة تل ابيب. ص.ص. 63-74. (بالعبرية).

زريق، رائف. (2016). **قراءة في الراهن الإسرائيلي**. مجلة الدراسات الفلسطينية، 106. ص.ص. 21-11.

علي، نهاد. (2007). **مفهوم المجتمع العصامي لدى الحركة الإسلاميّة**. لدى: ألي. ريخيس. (محرر). **الأقلية العربية في اسرائيل انتخابات الكنيست ال-17**. تل ابيب: مركز موشي ديان جامعه تل ابيب. ص.ص. 110-100. (بالعبرية).

ميعاري، محمود . (2014). **العرب الفلسطينيون في إسرائيل والسياسة التربوية الرسمية تجاه التعليم العربي**. لدى: محمود. ، ميعاري. (محرر). **مناهج التعليم العربي في إسرائيل دراسات نقدية في مناهج اللغة العربية والتاريخ والجغرافيا والمدنات**. الناصرة : المجلس التربوي العربيّ ولجنة متابعة قضايا التعليم العربيّ. ص.ص. 71-15.

Cnaan, Ram. (2002). **The invisible caring hand: American congregations and the provision of welfare**. New York: University press.

Ferrera, Maurizio. (1996). The 'Southern Model' of welfare in Social Europe. **Journal of European Social Policy**, 6(1), Pp.17-37.

Gough, Ian. (1996). Social welfare and competitiveness. **New Political Economy**, 1(2), Pp. 209-232.

Hetsroni, Amir & Remennick, Larissa. (2001). Pro-Choice vs. Pro-Life in the Holy Land: Socio-Economic and Attitudinal Correlates of Public Opinion towards Non-Vital Abortion in Israel. **International Journal of Public Opinion Research**, 13 (2) ,Pp. 194-205.

Leibfried, Stephan . (1992). Towards a European Welfare State. Zsuzsa, Ferge & Jon Eivind, Kolberg .(Eds.) **Social Policy in a Changing Europe**. Boulder, Westview Press. Pp. 245-279.

- د. حنين سمير مجادلة حاصلة على لقب ثالث في الخدمة الاجتماعية من الجامعة العبرية في القدس، محاضرة في اكاڤمية القاسمي وزميلة في مدرسة منديل للقيادة التربوية.

بين المخاطر والتحديات:

سرد قصصي لسيرة حياة نساء فلسطينيات في إسرائيل إثر طلاق والديه على خلفية عنف زوجي

بسمه أبو تنها*

ملخص

يتناول المقال الدراسة التي أقوم بها حول قصص حياة النساء الفلسطينيات في إسرائيل اللاتي نشأن في عائلات تطلق فيها الوالدان على خلفية عنف زوجي، وذلك ابتغاءً فهم أثرها على حياتهن الحالية كزوجات وكأمهات وكنساء في المجتمع العربي الفلسطيني في إسرائيل. تعتمد الدراسة المنهج القصصي كإطار ومرجع نظري موجه لفهم عوامل مركزية في البحث مثل سيورة بناء وصياغة الذات للمشاركات، وخلق معانٍ مختلفة للحياة إثر الانكشاف للعنف الزوجي وطلاق الأهل. كذلك تعتمد على المنهج نفسه لفحص أسئلة البحث من خلال مقابلات قصصية مع المشاركات. تتكون عينة البحث من أربعين امرأة فلسطينية في إسرائيل، متزوجات وأمّهات لأولاد (لدى كل منهن ولد واحد على الأقل)، من مختلف القرى والمدن في البلاد ما عدا منطقة النقب. تتراوح أعمار النساء بين تسع عشرة وثلاثين سنة (19-30). هؤلاء النساء نشأن في عائلات تطلق فيها الوالدان على خلفية عنف زوجي (المقصود به العنف الجسدي للأب تجاه الأم). الدراسة الحالية هي تتمة لبحث أطروحة الماجستير التي تمحورت حول طلاق النساء الفلسطينيات من أزواجهن المعنفين وانعكاسات الطلاق وأبعاده على جوانب مختلفة من حياتهن.

مقدمة

يمر المجتمع العربي الفلسطيني في إسرائيل بكثير من التغيرات والأزمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تؤثر فيه وتضعه حيال تحديات عديدة. تظهر هذه التغيرات واضحة في مبنى العائلة ومكانتها، في تقسيم الوظائف والمسؤوليات داخلها، في العلاقات بين أفرادها، في ماهية رباط الزواج، وفي ارتفاع ملحوظ لعدد الأزواج الذين يتوجهون لطلاق لفك الزواج وإبطاله.

يُعزى الطلاق في المجتمع الفلسطيني إلى عدّة أسباب، نحو: الاختيار غير الموفّق للزوج أو الزوجة؛ غياب الوعي بين الزوجين في شؤون الحياة الزوجية؛ الوضع الاقتصادي المتردّي والبطالة؛ التدخّل المستمرّ من طرف أهل الزوج أو الزوجة في الحياة الزوجية؛ علاقات القوّة غير المتكافئة بين الزوجين التي قد تنعكس على نحوٍ خاصّ في العنف الزوجي -ولا سيّما العنف الجسديّ من طرف الزوج تجاه زوجته والذي يُعتبر من أهمّ الأسباب التي تؤدّي إلى الطلاق وأكثرها شيوعاً.

بخلاف المجتمع الغربيّ الذي يُبدي تقبّلاً وتفهمًا للطلاق بعض الشيء، يُبدي المجتمع الشرقيّ عامّة والفلسطينيّ خاصّة تحفظاً من الطلاق، ويحاولان منعه بشتّى الطرق. وعلى الرغم من أنّ النظرة المجتمعية للطلاق في الفترة الأخيرة تشهد منعطفًا جديدًا أكثر إيجابية مقارنةً بما سبق، فإنّها ما زالت تميل -في أحيان كثيرة- إلى إلقاء اللوم على النساء وتحميلهنّ مسؤوليّة الطلاق، وإن كان الطلاق هو بمثابة الخيار الأخير للمرأة بعد معاناتها لسنوات طويلة من عنف زوجها. أشارت دراستي السابقة، ومن خلال سماع روايات النساء، إلى أنّ المجتمع العربيّ الفلسطينيّ يتعمّد -بشكل أو بآخر- الامتناع عن البحث في موضوع الطلاق وأبعاده على أفراد الأسرة عامّة؛ وذلك كوسيلة من وسائل الرفض للطلاق وشَرَعَتته والحدّ من انتشار الظاهرة وزعزعة المبنى العائليّ المفضّل والمقبول الذي يعطي الرجل امتيازات وأفضليّات على الرغم من كونه عنيفًا. وقد أوضحت النساء أنّ الطلاق كان مسببًا لحدوث تغيّرات عدّة في حياتهنّ برزت على المستويات الثلاثة: النفسيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ. فقد شاركت قلّة منهنّ بالقول إنّ الطلاق فتح أمامهنّ عدّة أبواب للتقدّم والتطوّر ورفع مستوى معيشتهنّ وإحساسهنّ بالرفاهية العامّة، بينما أعربت معظمهنّ أنّ الطلاق كان مسببًا لدخولهنّ لدائرة الفقر، وتدنيّ وضعهنّ الاجتماعيّ والمسّ بعلاقتهنّ مع أبنائهنّ (ولا سيّما الإناث من الأبناء)، من خلال مراقبة سلوكهنّ وسلوك بناتهنّ. كذلك أشارت النساء أنّه في غالبية الأحيان لا تحظى هؤلاء الإناث بأيّ فرصة للمشاركة بتجربتهنّ أو تلقّي العلاج، بالرغم من زيادة الوعي لدى المعالجين والمهنيين لمشاعر الخوف والقلق الناتجة عن انفصال الوالدين، والتي ترافقهنّ حتّى مرحلة البلوغ وتنعكس في حياتهنّ بشكل أو بآخر، ولا سيّما بعد انكشافهنّ للعنف داخل العائلة طيلة سنوات عديدة. في الدراسة الحالية، أقوم ببحث تأثير العنف الزوجيّ وحدوث الطلاق في أعقابه على حياة النساء المتزوّجات اللواتي عشن في طفولتهنّ ومراهقتهنّ في تلك الأسر.

مراجعة الأدبيّات

تطرّقت غالبية الدراسات في مجال العنف الزوجيّ إلى آثار وأبعاد هذا العنف على الأولاد والمراهقين على المدى القريب والمدى البعيد. أشارت الدراسات أنّه على المدى القريب يعاني الأطفال والمراهقون الذين انكشفوا للعنف الزوجيّ من صعوبات نفسيّة وعاطفيّة وذهنيّة وسلوكيّة. تنعكس هذه الصعوبات في مظاهر من القلق والحزن والعنف والتصرّف العدوانيّ وتدنيّ التحصيل العلميّ (Fainsilberkatz, Stettler & Gurtovenko, 2016). دلّت دراسات أخرى أنّ الأطفال والمراهقين الذين انكشفوا للعنف الزوجيّ المستمرّ يشعرون غالبًا بالاكئاب، وبتدنّي في احترام الذات، وكذلك يشعرون بالوحدة والعزلة (Grasso, Henry, Kestler, Nieto, Wakschlag & Briggs, 2016). (Gowan, 2016).

تتفق معظم هذه الدراسات على أنّ الإساءة النفسيّة التي يعاني منها الطفل أو المراهق المنكشف للعنف الزوجيّ - سواء أكانت هذه الإساءة عقليّة أم عاطفيّة- هي أكثر ضررًا بصحّته من الإساءة التي يعاني منها طفلًا آخر لكونه معنّفًا من أحد الوالدين على نحوٍ مباشر (Callaghan, Alexander, Sixsmith & Fellin, 2015). أمّا فيما يتعلّق بانعكاسات الانكشاف للعنف الزوجيّ على المدى البعيد، فيدّعي العديد من الباحثين أنّ آثار التعرّض لهذا العنف لا

تتوقف عند حدود الحاضر الذي يعيشه الطفل أو المراهق، بل تمتد لتشكّل مستقبله بمفردات جديدة يملأها الخوف والفرح والسوداوية واليأس (Grasso et al., 2016).

في عديد من الأحيان، يحدث أن ينتقل الصراع الزوجي من جيل إلى آخر، بحيث يصبح المراهق رجلاً عنيفاً (Fowler, Cantos & Miller, 2016)، وتصبح المراهقة امرأة معنّفة (Lohman, Neppel-Senia & Schofield, 2013). كذلك يفرز هذا الانكشاف آثاراً سلبية عديدة، تتمثل في شخصياتهم كإناس بالغين يواجهون صعوبات والدية، وصعوبات في اتخاذ القرارات التي تحدّد المستقبل وتقرّر المصير (Buchbinder, 2004).

من أكثر آثار الطلاق النفسية شيوعاً وانتشاراً الشعور بالخوف من المستقبل، وانعدام الشعور بالأمان، والحزن والأسى والاندفاعية (Civitci, Civitci & Fiyakali, 2009). أما بالنسبة للآثار المستقبلية، فتوضّح الدراسات أن أكثر ما يميّز الأولاد البالغين الذين عاشوا طلاق الأهل على خلفية العنف الزوجي هو الاضطراب في العلاقات الاجتماعية، وعدم القدرة على إنشاء علاقات مستديمة، والعزوف عن الزواج، أو الخوف من تكرار تجربة والديهما نفسها. أما الإناث، فقد وُجد أنّهن يتزوجن في سن مبكرة ويلدن أكثر، فضلاً عن أنّهن أكثر عرضة للطلاق، وكذلك للبقاء في حالة من تدني الدخل الاقتصادي والوضع الاجتماعي (Amato, 2010).

على الرغم من أنّ معظم الدراسات المذكورة تتمحور حول الآثار السلبية الناتجة عن الانكشاف للعنف الزوجي وطلاق الوالدين على خلفية هذا العنف، ثمّة دراسات أخرى تشير أنّ هناك عوامل عديدة من شأنها التخفيف من هذه الآثار السلبية أو حتى الحد منها مثل الحصانة النفسية للفرد، والدعم العائلي والمجتمعي (Wright & Fagan, 2012). مقارنة بالدراسات الغربية، الدراسات التي أجريت في العالم العربيّ توصّلت إلى نتائج مشابهة بشكل أو بآخر للنتائج التي ذُكرت أعلاه، في ما يتعلّق بأبعاد وآثار الانكشاف للعنف الزوجي وطلاق الأهل على الأولاد من الناحيتين النفسية والشخصية، إلا أنّها تناولت كذلك على نحو خاصّ الأبعاد الاجتماعية والثقافية المنبثقة عن الرفض العام للمجتمع العربيّ للطلاق، ورؤيته "كمفكك ومدمر" للعائلة حتى لو حدث هذا الطلاق بعد سنين من العنف المستمر. على وجه التحديد، تصف هذه الدراسات الإناث اللاتي نشأن في مثل هذه العائلات بوصفهنّ متضرّرات أساسيات من الطلاق مقارنةً بالذكور، حيث يملنّ إلى الزواج في سن مبكرة على الرغم من تشكيكهنّ في مقدرتهنّ على إنجاح هذا الزواج والاستمرار فيه (الغرابية وعليمات، 2012؛ القريشي، 2014).

أما الدراسات الفلسطينية في إسرائيل، تلك التي تناولت موضوع الطلاق، فهي قليلة، ومعظمها تطرقت بصورة عامّة إلى رفض المجتمع للطلاق، ومحاولة إلقاء اللوم على النساء في حالة وقوعه، ولا سيّما المعنّفات منه (Meler, 2015; Abu-Baker, 2005)، دون إلقاء الضوء على أبعاد الطلاق على بناتهنّ اللواتي كنّ عرضة لعنف الأب تجاه الأمّ في مرحلة الطفولة والمراهقة، وشهدن انفصال الوالدين نتيجة هذا العنف. تتمحور الأبحاث القليلة التي تُعنى بوضع الأولاد حول الأبعاد التربوية الناجمة عن طلاق الوالدين، كالتحصيّل العلمي، والثقة بالنفس أو الاقتراب من المخاطر، وتفتقر معظمها إلى فهم الأسباب المؤدية إلى الطلاق، كالعنف الزوجي وغيره، وأبعاد هذه الأسباب على الأولاد عامّة، وعلى الإناث خاصّة (جابر، 2010؛ مجادلة، 2015).

كما ذُكر أعلاه، في المجتمع العربيّ عامّة، والفلسطيني خاصّة، غالباً يقابل الطلاق بالرفض وإعطاء صبغة سلبية لانعكاساته وإسقاطاته على أفراد العائلة وعلى المجتمع ككل. لفهم قصة حياة الأفراد الذين عاشوا الطلاق، وبخاصّة الطلاق على خلفية عنف زوجي، هنالك حاجة إلى دراسة التوجّهات المجتمعية وفحص مدى تأثيرها على الأفراد.

أهداف البحث

تسعى الدراسة إلى فهم ومعرفة قصص حياة النساء الفلسطينيات في إسرائيل اللاتي

وكأمهات وكنساء في المجتمع العربي الفلسطيني في إسرائيل. تطمح هذه الدراسة إلى إسماع أصوات هذه الفئة من النساء بوصفها فئة غير مسموعة ومهمشة في المجتمع، حيث تصبو أن تكون لهنّ بمثابة منبر حرّ يمنحهنّ الفرصة لطرح الأبعاد الشخصية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية للحياة في ظلّ العنف العائلي والطلاق في المجتمع الفلسطيني في إسرائيل، وذلك للإسهام البحثي في تعزيز مكانتهنّ الاجتماعية والسياسية.

لذا، سؤال البحث المركزي يُعنى بالقصص التي تميّز حياة النساء اللاتي نشأن في عائلات تطلّق فيها الوالدان على خلفية عنف زوجي في المجتمع العربي الفلسطيني في إسرائيل، وبكيفية إسهام هذه القصص في صقل ذواتهنّ وبلورة توجّهاتهنّ ومعانيهنّ للحياة. كذلك يتطرّق البحث إلى كيفية تقييم النساء لأبعاد الحياة في العائلة المصعّرة على حياتهنّ الحالية كزوجات وأمّهات وكنساء، ويُعنى بالسؤال حول مدى تقييمهنّ لتأثير القوانين الدينية، والأعراف الاجتماعية والثقافية التي تميّز المجتمع العربي الفلسطيني في إسرائيل، على القصة التي يروينها.

منهجية البحث

يعتمد البحث على المنهج النوعي-السرديّ (القصصي) الذي يُعتبر من الأساليب المستخدمة في تقديم المعلومات والحقائق كما يراها الراوون. ويدّعي العديد من الباحثين القصصيين أنّ الفرد يعتمد في روايته لقصة حياته على عوامل متعدّدة من بينها المستمعون والسياق الاجتماعي والثقافي الذي يظهر في بناء الشخصية القصصية، فضلاً عن عنصر التكوين اللغوي للقصة ومستوياتها وما تمثّله من فلسفة حيث تُعتبر القصص التي نقصّها عن العالم من حولنا أبنية اجتماعية تفرض اللغة فيها شروطاً معينة على الأسلوب الوصفي القصصي. كذلك يؤكّدون أنّ الناس لا يتعاملون مع العالم حدثاً تلو الآخر أو مع النصّ جملة تلو الأخرى، بل إنهم يشكّلون الأحداث والجمل وفق بنى ترابطية يُبنى بعضها على البعض الآخر، ويؤكّد أهمية القصة في دراسة الشخصية الإنسانية بكونها تحكي الماضي والحاضر والمستقبل لحياة الفرد، كما أنّ بناء هوية قصصية يُعدّ حوارياً بدرجة أكبر ويحدث داخل نطاق سياق اجتماعي وسياسي وثقافي معين (McAdams, 1993; Murray, 2000).

العينة البحثية

تشارك في هذا البحث أربعون امرأة فلسطينية من إسرائيل، متزوجات وأمّهات لأولاد (لدى كلّ منهنّ ولد واحد على الأقل)، من معظم المناطق في البلاد باستثناء منطقة النقب. تتراوح أعمار النساء بين تسع عشرة وثلثين سنة (19 - 30). هؤلاء النساء نشأن في عائلات تطلّق فيها الوالدان على خلفية عنف زوجي.

نتائج أولية

تروي المشاركات اللواتي جرت مقابلتهنّ حتّى الآن (عشر مشاركات) قصصاً مختلفة من حيث المبنى والمضمون. تلك هي قصص وتجارب عشنها في طفولتهنّ وتركت آثاراً قوية في نفوسهنّ، وقصصاً ما زالت ترافقهنّ حتّى اليوم، وتظهر في مراحل مختلفة من حياتهنّ. تختفي هذه القصص وتتغيّر تارة، وتعود لتظهر بقوة تارة أخرى.

تقصّ بعض النساء قصص انكسار وضعف وخوف يرافقه منذ كنّ فتيات صغيرات ومراهقات حتّى اليوم بعد أن أصبحن زوجات وأمّهات، وهو ما يؤثر بشكل أو بآخر على علاقاتهنّ مع أزواجهنّ وأولادهنّ. هذا الخوف دفعهنّ إلى النظر للمستقبل بمنظور ضيق ومحصور إثر ردود الفعل العائلية والاجتماعية الراضة للطلاق، وتردّي وضع العائلة

الاقتصادي بعد الطلاق، والحالة النفسية السيئة التي مرّت بها أمهاتهنّ بعد الانفصال وتركهنّ لبيوت الزوجية. تروي بعض المشتركات أنّ غياب التفهّم والدعم العائلي والاجتماعي، وعدم احترام قرار الأمّ بالانفصال عن الزوج العنيف، وتقييدها هي وأفراد عائلتها بضوابط اجتماعية وسلوكية صارمة، كلّها أثّرت سلبياً عليهنّ، وبالأخصّ على تقييدهنّ الذاتي لأنفسهنّ، ممّا دفعهنّ إلى إعادة تشكيل سلوكياتهنّ وعلاقاتهنّ وفق ما تُمليه عليهنّ ظروفهنّ وأحوالهنّ الجديدة، واتّخاذ قرارات غير مدروسة مسّت بمستقبلهنّ من عدّة نواحٍ (النفسية منها والاجتماعية والثقافية والاقتصادية)، كمثل الموافقة على الزواج من شابّ كيف بحجّة الرغبة في التخفّف من العبء الاقتصادي الذي أثقل كاهل العائلة بعد الطلاق.

من جهة أخرى، تروي الكثير من المشتركات قصص إصرار وتحدّ وصل جديد للذات والخوض في مسارات إيجابية للحياة كالتعليم والعمل، بعد معاناة طويلة من أبعاد التعرّض للعنف وطلاق الوالدين. من خلال رواية هذه القصة، تؤكّد المشتركات على دور الأمّ الفعّال في رسم وتخطيط حياة الأولاد بعد الطلاق، ولا سيّما الإناث من بينهم، حيث اخترت أمهاتهنّ الاستفادة من التجربة القاسية مع الزوج العنيف في تعزيز الثقة بأنفسهنّ، وإثبات ذواتهنّ، وحثّ بناتهنّ على مواصلة الطريق وعدم التوقّع في دائرة العنف والطلاق وأبعادهما السلبية. بهذا التوجّه تحوّل واقع الطلاق الصعب إلى خطوة إيجابية ومستقرّة في حياة أفراد العائلة عامّة.

في هذا الصدد، تطرقت بعض النساء إلى أهميّة الدعم العائلي والمهني الذي حظين به بعد طلاق الوالدين وفي مراحل متقدّمة من حياتهنّ، مثل الزواج والإنجاب. فقد وصفته إحداهنّ بأنّه "الدرع الواقي" إذ كان له دور فعّال في حمايتهنّ وإعطائهنّ الفرصة لصياغة قصص حياتهنّ متحوّلة من قصص خوف وانكسار إلى قصص تحدّ وتطور، والعمل على تثبيت هذه القصة وعدم تراجعها من جديد إثر الخوض في تجارب جديدة وضاعطة. كذلك أكّدت أنّ مشاركتهنّ للغير في التجارب الشخصية وإسماعهنّ لهذا الصوت هو بمثابة تعبير عن مسؤولياتهنّ الشخصية كنساء كبرن وترعرعن في ظلّ العنف الزوجي والطلاق، في تغيير المفاهيم السائدة في المجتمع العربي الفلسطيني حيال العنف الزوجي والطلاق، وإحداث تحوّل قيمّي واجتماعي عامّ بهذا الشأن يتمحور في أهميّة الدعم والاحتواء على مختلف أشكاله، العائلي منه والمجتمعي، والحاجة إلى سماع القصة من الأشخاص الذين عايشوها بعيداً عن الاستناد على التقييمات والأبنية الاجتماعية حيال العنف في العائلة وطلاق الوالدين.

إسهام الدراسة

تسهم الدراسة في وصف وفهم تجربة النساء اللواتي انكشفن خلال طفولتهنّ أو مراهقتهنّ للعنف الزوجي (المقصود عنف من قبل آبائهنّ نحو أمهاتهنّ) وطلاق الوالدين على خلفيّة هذا العنف، وتسهم إسهاماً خاصّاً في فهم الانعكاسات الناجمة عن هذه الظروف في حياة النساء كزوجات، كأمّهات وكنساء فلسطينيات في إسرائيل؛ وذلك من تحليل معمّق يعي ويأخذ بعين الاعتبار مميّزات وخصائص المجتمع الفلسطيني في إسرائيل، كمجتمع مستعمر يخضع للتمييز ولايات مراقبة مُحكّمة تمنع تطوّره الاجتماعي والسياسي. وبالتالي فهو يتطرق إلى مواضيع مختلفة لم تحظ بالاهتمام والبحث والعلاج من قبل، إذ غالباً ما توجّه المهنيون لحلّها والتعاطي معها باعتمادهم على معلومات ونتائج أبحاث إسرائيلية أو غربية، نجدها في كثير من الأحيان تنحو إلى التحليل الثقافيّ دون أخذ الواقع السياسيّ المركّب في الاعتبار، فتتّظر إلى المجتمع العربيّ باعتبار أنّه مجتمع "محافظ" أو "غير متطور"، وهو ما يجعلها تفتقر إلى النجاعة ولا تفي بالغرض المطلوب، بل قد تعرقل أحياناً تطوّره.

هذا الفهم يسهم في توجيه المهنيين والمختصين للعمل على الحد من انتشار ظاهرة العنف الزوجي في المجتمع الفلسطيني في إسرائيل، وذلك من خلال بناء برامج توعية وعلاج وتدخّل خاصّ بالنساء الفلسطينيات وعائلاتهنّ، وتزويدهنّ بآليات حياتية جديدة لم يستعملنها في الماضي بهدف زيادة نجاعة تعاملهنّ مع حياتهنّ الحالية وتحسين جودة حياتهنّ.

ترمي الدراسة عامّة إلى الإسهام في تغيير بعض المعايير المجتمعية السلبية والهدامة حيال الطلاق، وتعزيز إيمان النساء بأنفسهنّ وقدرتهنّ على مواصلة حياتهنّ على نحو أفضل، وكذلك ترمي إلى تقوية معايير معرّزة وداعمة للعائلة الفلسطينية في إسرائيل، ومساعدتها في تخطّي الأزمات التي تواجهها في حالة الطلاق، بغية خلق مجتمع أفضل.

- الغراييه، فاكر محمد؛ وعليمات، حمود سام. (2012). التأثيرات النفسية والاجتماعية للطلاق على الاطفال: دراسة على عينة من الاطفال في دار الضيافة في اتحاد المرأة الاردنية. *مجلة جامعة الشارقة للعلوم الانسانية والاجتماعية*, 9(2), 97-119.
- القريشي، غني. (2014). الطلاق بين الممكن والمحذور - دراسة اجتماعية تحليلية. *مجلة جامعة بابل، كلية الآداب*, 15. 247-271.
- جابر، مرلين. (2010). تأثير الطلاق على التقييم الذاتي وعلى الاقتراب من المخاطر بين ابناء شبيبة لعائلات عربية. رسالة ماجستير، جامعه تل ابيب. (بالعبرية).
- مجادله، وسام. (2015). تعامل اولاد لاهالي مطلقين من عائلات مختلطة بين سكان عرب اسرائيليين وسكان فلسطينيين من الضفة الغربية في جهاز التربية والتعليم. *بسيخواكتوآليا*, 15-19. (بالعبرية).
- Abu- Baker, Khawla. (2005). The impact of social values on the psychology of gender among Arab Couples: A view from psychotherapy. *Israel Journal of Psychiatry*, 42(2), 106-114.
- Amato, R. Paul. (2010). Research on divorce: Continuing trends and new developments. *Journal of Marriage and Family*, 72(3), 650-666.
- Buchbinder, Eli. (2004). Motherhood of battered women: The struggle for repairing the past. *Clinical Social Work Journal*, 32(3), 307-326.
- Callaghan, M. Jane., Alexander, H. Joanne., Sixsmith, Judith., & Fellin, C. Lisa (2015). Beyond "Witnessing" children's experiences of coercive control in domestic violence and abuse. *Journal of Interpersonal Violence*. 33(10), 1551-1581.
- Civitci, Nazmiye., Civitci, Asim., & Fiyakali, N. Ceren. (2009). Loneliness and life satisfaction in adolescents with divorced and non-divorced parents. *Educational Sciences: Theory and Practice*, 9(2), 513-525.
- Katz, Lynn., Stettler, Nicole., & Gurtovenko, Kyrill. (2016). Traumatic stress symptoms in children exposed to intimate partner violence: the role of parent emotion socialization and children's emotion regulation abilities. *Social Development*, 25(1), 47-65.
- Fowler, R. Drew, Cantos, L. Arthur., & Miller, A. Steven (2016). Exposure to violence, typology, and recidivism in a probation sample of domestic violence perpetrators. *Child Abuse & Neglect*, 59, 66-77.

- Grasso, J. Damion., Henry,David.,Kestler, Jacqueline., Nieto, Ricardo.,Wakschlag, Lauren.,& Briggs-Gowan, Margaret. (2016). Harsh parenting as a potential mediator of the association between intimate partner violence and child disruptive behavior in families with young children. **Journal of Interpersonal Violence**, 31(11), 2102-2126.
- Lohman,J. Brenda.,Neppl,K. Tricia.,Senia, M. Jennifer.,& Schofield,J. Thomas. (2013). Understanding adolescent and family influences on intimate partner psychological violence during emerging adulthood and adulthood. **Journal of Youth and Adolescence**, 42(4), 500-517.
- Meler, Tal. (2015). "I do what I please, but even so, I see a psychologist", Palestinian divorced and widowed mothers in Israel. **Journal of Middle East Women's Studies**, 11(3), 306-324.
- McAdams, P. Dan. (1993). **The stories we live by: Personal myths and the making of the self**. New York: William Morrow.
- Murray, Michael. (2000). Levels of narrative analysis in health psychology. **Journal of health psychology**, 5(3), 337-347.
- Wright,M. Emily,& Fagan, A.Abigail. (2012). Exposure to intimate partner violence: Does the gender of the perpetrator matter for adolescent mental health outcomes? **Criminal Justice and Behavior**, 39(1),26-41.

*بسمة أبو تنها عاملة اجتماعية، وطالبة دكتوراه في مدرسه العمل الاجتماعي في جامعة حيفا.

"مظاهر الأدب النسويّ في كتابات يوسف إدريس وذكريّا تامر"

أماني هوّاري*

يناقش هذا المقال، بالاعتماد على دراسة أكاديميّة جارية، النظرية القائلة إنّه يمكن للكاتب الرجل أن يكون نسويًا في كتابته، على اعتبار النسويّة أيديولوجيا غير موصولة بالسّمات البيولوجيّة. يتناول المقال ادّعاءات بعض المنظّرات في النقد النسويّ في ما يخصّ الكتابة النسويّة ومعاييرها في الأسلوب وفي المضمون، ككتابة تُعنى بالمجموعات المهمّشة.

في هذا العرض التحليلي، أعتد على الأدبيّات التي قمت بدراستها لأعين من منظور النقد الأدبيّ النسويّ نموذجًا من كتابات كلّ من الكاتبتين ذكريّا تامر ويوسف إدريس، وتحديدًا قصّة ذكريّا تامر "رجال" وقصّة يوسف إدريس "بيت من لحم"، وأفحص فرضيتي بشأن إمكانية خضوعها لمعايير الكتابة النسويّة، وذلك من خلال دراسة أكاديميّة أقوم بها حاليًا.

أصل الفكرة:

يعتمد هذا المقال على الفكرة النظرية أنّه يمكن للكاتب الرجل أن يكون نسويًا في كتابته، وذلك لأنّ النسويّة عقيدة. في هذا الصدد، تؤكّد الناقدة النسويّة ساندرا بارتكي Sandra Bartky وجود العديد من الرجال الذين حملوا فكرة مناهضة للعقيدة الذكوريّة التي يرون أنّها أضرت، وما زالت، بالرجل كما بالمرأة. وتلخّص الناقدة قراءتها لكتابات هؤلاء الرجال بأنّه يمكن القول إنّ فرض الهوية الجندريّة الذكوريّة هو أمر يجرّ الأمل على الرجال، كما هو الشأن في فرض الهوية الأنثويّة على النساء، وهو ما حفّز الكثيرين منهم على دعم النساء في نضالهنّ، إضافةً إلى رؤياهم بشأن إحقاق العدالة الاجتماعيّة في العالم (Digby 1998, Foreword).

لا شك أنّ دوافع الرجال النسويين لتبني مثل هذا الفكر المناهض للفكر الأبويّ الذكوريّ تُفهم في سياق عقيدة إنسانيّة أشمل تُشمّل هذه في طياتها؛ ألا وهي عقيدة مناهضة للظلم بأشكاله المختلفة. ذاك موقف يوازي موقف نساء الغرب البيض غير العنصريّات اللاتي يناضلن ضدّ التمييز العنصريّ. فهنالك رجال مثل أولئك النساء، لا يستطيعون التواطؤ مع الظالم والمضطهد، ولا يريدون التعاون مع اضطهاد وإخضاع نصف البشريّة، بل يرون دورهم في أن يثوروا على هذا النظام سعيًا وراء إحقاق العدالة الاجتماعيّة (Digby 1998, Foreword). هذه العقيدة الأشمل هي ذاتها التي تحدّث عنها جورج طرابيشي وإدوارد سعيد وغيرهما من نقاد فترة ما بعد الاستعمار. وهي ذاتها تلك التي عبّر عنها بعض النقاد من خلال رؤيتهم أنّ الرغبة في تغيير الواقع المَعيش تتطلّب وعيًا كاملًا للظلم الواقع والاستغلال في المجالات كافة، بدءًا بنواة العائلة، ومن ثمّ في العمل وفي المجتمع. ومن أشكال مناهضة الظلم ثورة الأدب النسويّ، كجعل واعٍ مقصود يهدف إلى تغيير الوضع القائم، ومن الممكن أن ينتجه الرجال والنساء على حدّ سواء (Taha 2006, 30).

يفترض هذا المقال أنه بإمكان الكاتب الرجل أن يسهم في الكتابة النسوية على المستويين؛ الأيديولوجي والأسلوبي، في الحد الذي لا يرتبط بيولوجياً بجنسه. ترى الناقدة والكاتبة النسوية إلين سيكسو Hélène Cixous أن ما سمته "كتابة المرأة" *Écriture Féminine* لا يتعلّق بجنس الكاتب، وإنما بجنس النصّ، وعليه نحن نبحت بالأساس في نسوية النصّ لا في مؤلّفه بالضرورة. تذكر سيكسو عددًا من أسماء الكتّاب من الرجال الذين أتقنوا هذا النوع من الكتابة وقدموا خير مثال لها (Tyson, 101)، كذلك يعتقد الناقد ستيفان هيث Stephan Heath أن المرأة النسوية ليست نسوية لكونها امرأة، بل لأنها تحمل عقيدة اجتماعية سياسية، وتلتزم بنضال يسعي إلى تغيير الواقع الذي تعيشه المرأة. تصبح النساء نسوياتٍ بدافع الوضع القائم؛ فالنسوية تنبثق من الوعي لظلم المرأة واستغلالها، سواء أكان ذلك في العائلة، أم في مكان العمل، أم في المجتمع عامّة، وتكون بوعيٍ من المرأة والرجل على حدّ سواء من أجل تغيير هذا الواقع (Taha, 2007, 194).

نبح اهتمامي للشروع في هذا البحث من اهتمامي بالبحث في صورة الإنسان المهمّش في الأدب. وبما أنّ البحوث في أدب المرأة وكتاباتنا في العالم العربيّ أوفتها حقّها، جاءت الفكرة أن أنظر في أدب رجال مهمّشين في عالم مهمّش، كتبوا بشكل مغاير، اخترقوا المتوقّع وثاروا على المقبول، تضامنوا مع المرأة وكتبوا من زاوية نظرها المهملة، تماهوا مع قضاياها وكتبوا بصوتها، صوت المهمّشين الذين ينتمون إلى فئتهم.

من أهداف البحث الحفر في الأدب الموجود لإتاحة قراءات جديدة من شأنها أن تضيء بعدًا جديدًا للنصوص العربية، ولا سيّما في مجال نسوية الرجل العربيّ، وهو موضوع لم يُبحث على نحوٍ متعمّق في الأدب العربيّ، ولا في الغربيّ. لذا، قد تفتح نتائج هذا البحث آفاقًا جديدة لم يُنظر فيها أو نحوها، كما من شأنها إنصاف بعض من الكتّاب الرجال الذين همّشت بعض من أبعاد كتاباتهم.

المسوّغات النظرية للبحث:

تجاهل النقد الأدبيّ في طرحه إنجازات النساء، شأنه في ذلك شأن التاريخ والعلوم الاجتماعية والسياسية وغيرها، وهو ما جعل الوعي النسويّ يتخذ مهمّة مزدوجة في هدم المباني الحضارية الذكورية وإعادة البناء بموجب مفهوم التجربة النسوية، وذلك من أجل تغيير التقليد السائد الذي أصمّت المرأة وهمّشها. سعت الأبحاث النسوية إلى كشف التواطؤ القائم بين العقيدة الذكورية والممارسات الحضارية والاجتماعية، وعملت على إعادة صياغة صورة المرأة، متحدية الأدلة المتوافرة، ومعيدة تعريف المفاهيم والأعراف السائدة، وكلّ ما هو متفق عليه. فدعا النقد النسويّ، وما زال، إلى تحرر المرأة من سلطة الخطاب الذكوريّ وإلى اعتمادها التجربة النسوية الخاصة حيث لا يستطيع الرجل منافستها في مضمارها.

يُعرّف النقد الأدبيّ النسويّ بأنه فرع من نظام استفهاميّ يقوم على فرضيتين أساسيتين: أولاهما عدم المساواة القائم بين الجنسين دون مسوِّغ بيولوجيّ أو إلهيّ، بل كسلوك وممارسة حضاريّين، ولذلك يُعتبر موضوع بحث في نظام إنسانيّ، وثانيتها أنّ النظرة الذكورية العالمية قد هيمنت في مجال العلوم صائغةً مبانيها وأساليبها على أساس متين. ويتفق النقد النسويّ على ضرورة إعادة التحقيق في ما عُرف واصطُح عليه كعالميّ خادمًا هدفًا محددًا، وكذلك على ضرورة شمل النظرة النسائية بغية توسيع النظرة السائدة لتشارك فيه المرأة تجربتها وإسهاماتها الحضارية (Greene, 1991, 2).

وتتفق الأبحاث، كذلك، على أنه يمكن تقسيم النقد الأدبي النسوي في فترتين زمنيّتين هامّتين؛ فبداياته كانت في ستينيات القرن العشرين كحركة مرافقة للموجة الثانية من الحراك النسوي العالمي الناشط من أجل حقوق المرأة في منظومة حملة حقوق المواطن، كما تتفق على أن مرحلته الثانية بدأت في بداية سبعينيات القرن الماضي، وقد برز في الولايات المتحدة على أيدي أكاديميات، صحفيات، أدبيات، ومحاضرات جامعيّات اشتركن في حركة تحرير المرأة في ستينيات القرن الماضي (Showalter Criticism, Forward, 5). وفي هذه المرحلة، ومن بعد انطلاقه في الولايات المتحدة بفترة وجيزة، نشأ تيار نقديّ نسويّ أوروبيّ كان التقاؤه بالأميريكيّ في منتصف سبعينيات القرن الماضي من خلال المؤتمرات والمحاضرات، فبرزت فيه المقاربتان النقديّتان الإنجليزيّة والفرنسيّة¹⁹.

في بداياته، ركّز هذا النقد على فضح كراهية النساء في الأدب، وعلى الصور النمطيّة للمرأة المكرّسة للفكر الثنائيّ الخادم للتبيريكية، كما على إقصائها من الأدب الذكوريّ التقليديّ. وقد عزّز هذا النقد الربط بين الأدب والإساءة الاجتماعيّة للنساء في الپورنوچرافيا، أو حتّى محاولات الاغتصاب. وفي ثمانينيات القرن الماضي، ارتفعت الحساسيّة تجاه قضايا التمييز الجنسيّ كافةً كنتيجة لمحاولات تنبيه القراء إلى النكات المسيئة للمرأة والتقليل من شأنها. وأثر ذلك على نقد الذكور فانتفت ميزة القراءة البريئة للنصوص، وأصبح من الصعب تجاهل كراهية النساء أو التسامح فيها (Showalter Criticism, Forward, 5).

ويُعدُّ كتاب المنظرّة النسويّة كيت ميليت "سياسات جنسيّة" *Sexual Politics* الصادر عام 1970، في تلك الفترة، أول كتاب نقد نسويّ يقرن بين حركة تحرير النساء والعمل والحياة. ولا تنكر الأبحاث النسويّة أهميّة الكاتبة فيرجينيا وولف وكتابتها "غرفة خاصّة بها" *A Room of One's Own* ودوره في تأسيس النقد الأدبيّ النسويّ. ومن خلال عمليّات الحفر والتنقيب في الأدب، أدرك النقد الأدبيّ النسويّ عمليّات الحذف والفجوات والحقائق الجزئيّة والتناقضات التي تتفّحّ بها العقيدة الذكوريّة، فأحسن الإصغاء إلى الصمت ليكشف عمّا لم تقله هذه العقيدة، عمدًا أو دون عمد. وبهذا البحث والتفكيك، يتحالف النقد النسويّ مع النقد التفكيكيّ الذي يهتمّ بفحص عمليّة إنتاج النصّ؛ أي ترتيب الخطاب الذي يشكّله، كما بالإستراتيجيات التي تصقل تناقض العقيدة التي تنقشه وعدم انسجامها لتجعلها في زيّ متناغم كليّ. ويصغي نقد الأدب النسويّ، في ما يصغي، إلى عمليّة بناء العقيدة الجندريّة، بما فيها الترميم والتواطؤ (Gayle Greene & Coppelia Khan 1991, 22).

وفي فترة لاحقة للنقد الأدبيّ النسويّ، وتحديدًا في سبعينيات القرن الماضي، انطلقت مرحلة اكتشاف المرأة أنّ لها أدبًا خاصًا بها، أدبًا أعتمت عليه القيم الذكوريّة، ضلّت انسجامه الثيماتيّ وأهمّيّته الفئّيّة. كتبت الناقدة النسويّة الأمريكيّة إلين شوالتر مؤلّفيتها "نحو شعريّة نسويّة" "Towards a Feminist Poetics"، و"أدب خاصتهن"، وفيهما أكّدت على ضرورة إعادة بناء ماضي أدب المرأة، قبل البدء بالبحث عن خاصيّة هذا الأدب وفردانيّته، كما على ضرورة اكتشاف الإنجازات الأدبيّة التي أحرزتها المرأة، وإحصاء جميع الأدبيات من شاعرات وروائيّات وكاتبات مسرح غيبهنّ التاريخ.

¹⁹تمتّلت الإنجليزيّة بأسماء الناقداً ميري جاكوبس Mary Jacobus وروزالند كوارد Rosalind Coward وكورا كابلان Cora Kaplan، وغيرهنّ من الناقداً اللاتي جيّرن النظرية الماركسيّة في قراءة إنتاجات المرأة الكاتبة. أمّا المقاربة الفرنسيّة فُشّجِع الأبحاث على تمثّلها بأسماء بعض من المنظرّات، أبرزهنّ إلين سيكسو Hélène Cixous، جوليا كريستيفا Julia Kristeva، لوس إريچاري Luce Irizarry، ومونيك ويتيج Monique Wittig. وقد كانت ركيزة هذا النقد المدرسة السيكلوتحليليّة النيوفرويديّة التي أسّسها عالم النفس الفرنسيّ جاك لاكان Jacques Lacan، كما استمدّ أدواته من المذهب التفكيكيّ الذي أسّسه جاك دريدا Jacques Derrida، إضافة إلى تأثرها بالناقد النيويّ رولان بارت Roland Barthes (80, Jones).

وتعتقد شوالتر أنّ جمع هذه الإنجازات ضروريّ من أجل تأسيس تواصل تراثيّ للمرأة عبر العهود الماضية، إذ ينبغي عدم التسليم بالحقّ الإبداعية النسائية التي حدّدها التاريخ الذكوريّ حين حدّدها من "امرأة عظيمة"، بحسب تقييمه، إلى أخرى، وهمّس سائر المبدعات. وتقول إنّه عندما ينجح نقد الأدب النسويّ في خلق هذه السلسلة من المبدعات النساء وفحص تأثيرهنّ على الأجيال الماضية، عندها يمكنه تحديد دورية تاريخ الأدب وقدسية قوّنة إنجازاته. وما دامت أعمال امرأة تُدرّس بمعزل عن أعمال الأخريات، لا يستطيع هذا الأدب إدراك التواصل الذي يجمع بينها (Showalter 1985, 4-5).

كذلك سلكت الناقدتان الأمريكيتان ساندرنا جلبرت وسوزان جوبار الاتجاه نفسه، ودرستا أعمالاً نسائية صدرت في القرن التاسع عشر، وقد قدّمتا قراءة مختلفة للنصوص النسائية وأقرّتا أنّ النصّ النسائيّ يُقرأ في عدّة طبقات. الطبقة الظاهرة منه تبدو سطحيّة ذات دلالة واضحة، في حين أنّ قراءة متعمّقة للنصّ نفسه تكشف عن طبقات مستترة لمعانٍ أبعد وأصعب للتحديد (Moi 1995, 57).

أمّا التيار الثالث الذي نشأ في أوروبا في أواخر ستينيات القرن التاسع عشر، وموازاة التيار الأميركيّ، فهو تيار النقد النسويّ الفرنسيّ، الذي اعتُبر تياراً نظرياً مقارنةً بالتيارين الإنجليزي والأمريري العمليين اللذين يعتمدان التجربة النسائية والممارسة (Tyson 2006, 96).

تشدّد النسوية الفرنسية السيكوتحليلية على تأثير البتيركية على نفسية المرأة وتجربتها وإبداعها. وتسلب الضوء على المرأة الفرد لا على الجمع، مؤمنةً بأنّ الاضطهاد لا ينحصر في المستويات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، بل يتجاوزها جميعاً إلى المستوى النفسيّ، فيؤثّر في كبت المرأة نفسياً وعلى مستوى اللاوعي أيضاً. ترى هذه المقاربة النقدية أنّ على المرأة أن تحرّر ذاتها أولاً من الكبت النفسيّ الذي أخضعها، وجعلها أسيرة له، المجتمع البتيركيّ الذكوريّ، كخطوة حتمية تنطلق بعدها إلى سائر أشكال التحرّر. وترى أنّ المحلّ الأساسيّ الذي يحصل فيه هذا الكبت هو اللغة. إذ في اللغة تمرّ المفاهيم المرتبطة بالتمييز الجنسيّ كافّة، وما تعتبره البتيركية مولوداً مع الذكر والأنثى. كذلك، من خلال اللغة تُبنى الفوارق الجندرية المرتبطة بكلّ من الجنسين ارتباطاً بيولوجياً جوهرياً، بادعاء الأبوية (Tyson 2006, 100). وعليه، تنطلق هذه المقاربة النقدية من اللغة باعتبارها الوسيلة التي وظّفها الرجل لتحديد المرأة ووضعها في القطب السلبيّ في الثنائية الضدية ليبرر فوقيته.

وجدت النسوية الفرنسية جذورها في اللغويات والماركسية والفرويدية الحديثة، كما في اللاكائية والديديانية التفكيكية. فزاهي تعتمد على نظرية العالم الفرنسيّ السيكوتحليليّ جاك لاكان الذي بنى على ما وضعه العالم النفسي التحليليّ سيجموند فرويد من قبله، موظفاً فهمه لنظريّتي اللغويّين البنيويّين فيرديناند دي سوسور ورومان جاكسون، وكذلك الأنتروپولوج البنيويّ ليفي شتراوس. وقد أفادت هذه النظرية من التوجّه البعد بنيويّ الذي يتمثّل بأعمال دريدا وفوكو العامليّين على إعادة بناء الوعي، وركّزت على تسليط الضوء على الثنائيات الضدية التي بُنيت عليها الأدوار الجندرية (Plain & Sellers 2007, 214- 215).

أسئلة البحث ومنهجيته:

وعلى هذا البناء تطرح هذه الورقة السؤال المركزي التالي: هل يكون الكاتب الرجل نسويًا في أدبه؟ وبطبيعة حال سؤال البحث المركزي، تتفرّع عنه ثلاثة أسئلة جوهرية سيجري التعامل مع السؤالين الأولين منها في هذه الورقة:

- (1) ما هي المضامين والأفكار التي يجب أن يطرحها النص لكي يكون نسويًا؟
- (2) بأي أسلوب يجب على النص توصيل هذه المضامين والتعبير عنها؟
- (3) هل يكون نص الكاتب الرجل نسويًا بنفس المقدار الذي يكون به نص المرأة؟

الحقيقة أن الدراسات النظرية في هذا الموضوع محدودة جدًّا، والدراسات الخاصة في الأبعاد النسوية لأدب هذين الرجلين لا تُذكر. وفي حين تحاول دراسة مستفيضة لأعمال الكاتبتين يوسف إدريس وزكريّا تامر كنموذجين لكاتبتين نسويين الإجابة عن هذا السؤال، يعرض هذا المقال نموذجًا تحليليًا لنص نسوي لكل من هذين المؤلفين.

كي يُنجز هذا العمل، لا بدّ من تحديد المنظومة الاصطلاحية التي يتأسس عليها النقد النسوي على مستويي الفكر والأسلوب. فالنسوية ليست مجموعة من الأفكار المعزولة عن أساليب التعبير، ولا بدّ أيضًا من تبيين الفروق الدقيقة بين التيارات النسوية المختلفة في الكتابة الأدبية النسوية (نحو: الكتابة النسوية feminist writing؛ الكتابة المؤنثة، أو كتابة المرأة feminine writing؛ كتابة الأنثى female writing)، حتّى نتمكّن في النهاية من إدراج هذين الكاتبتين في التيار الذي يلائم كلاً منهما.

وإذا ما أجملنا الحديث، يمكننا القول إنّ النصّ النسويّ بفكره يؤكّد على القضايا التالية:

- (1) إعادة النظر في مؤسّسة الزواج التقليديّة (Taha 2007, 197)؛
 - (2) إعادة النظر في الحرّية الجنسيّة، وفتح الباب لعلاقات جنسيّة ذاتيّة ومثليّة (صقّوري 2007، 248؛ Taha 2007, 197)؛
 - (3) الاحتفاء بالجسد والاحتفال به في إبرازه وتوصيفه بدقّة؛
 - (4) التمرد على جميع الأعراف الذكوريّة التي تحطّ من شأن المرأة في الدوائر الاجتماعيّة كافّة. أمّا على مستوى الأسلوب، فيشدّد على ما يلي:
- (1) مركزيّة الشخصية النسائيّة في النصّ؛
 - (2) إعلاء صوت المرأة في النصّ؛
 - (3) توظيف تقنيّات ميتا-أدبيّة لتمكين الكاتب النسويّ من الهيمنة على المتخيّل السردّي وعمليّة نقد هذا المتخيّل في النصّ نفسه على حدّ سواء؛
 - (4) استخدام اللغة الشعريّة، التي يسمّيها البعض اللغة الأنثويّة. تدعو جوليا كريستيفا المرأة إلى تجاوز اللغة البتريكيّة الأبويّة واستخدام البعد السيميائيّ للغة، أمّا سيكسو فتعتبر اللغة الأنثويّة أفضل ما يعبر عن المرأة، وهي لغة سائلة مرنة وحرّة التداعيات (Tyson 2006, 102, 103)؛
 - (5) إنتاج النوع الأدبي المرتبك المتداخل (صقّوري 2007، 92).

نموذج لقراءة في قصة "رجال" لذكريا تامر بعدسة نسوية:

تصوّر لنا هذه القصة مَشاهد قصيرة جدًّا ومكثّفة لعلاقة بين رجل يدعى عبد الحليم المرّ وزوجته نبيلة. وهي مشاهدٌ مختزلةٌ في تهديداتٍ يقوم بتوجيهها عبد الحليم لزوجته، بينما زوجته تسخر منه ومن تهديداته فتستهتر بها وتحدّاه تصعيدًا، حتّى تنتهي القصة بخيانتها له وتركه عاجزًا عن القيام بأيّ ردّ. ولعلّ قراءة متعمّقة للقصة تكشف عن المستتر في ثناياها؛ فعبد الحليم رجل شرقيّ ذكوريّ التفكير، يرى "حقّ" الرجل في التسلّط على زوجته مستمدًّا من فحولته. وبعد التدقيق والتحليل، يفهم القارئ من أحداث النصّ أنّ ضعف عبد الحليم أمام زوجته راجعٌ إلى عجزه الجنسيّ، وأنّ عجزه هذا يسلبه كلّ مؤهلّ للرجولة، فلا فرق بين الرجولة والفحولة في المجتمع الذكوريّ، وهذه مسألة يطرحها النصّ ليسخر منها ويقرّم مؤيديها.

إضافةً إلى المضمون النسويّ الذي يتمحور حوله هذا النصّ القصير، يوظّف ذكريا تامر بعضًا من الأساليب الجماليّة المتفق عليها لدى معظم تيارات النقد النسويّ لتخدم غرضه من الفكرة المركزيّة. يجعل تامر المرأة الشخصية الأقوى؛ فنبيلة، الشخصية غير النمطيّة، متمرّدةٌ جسورًا ومتحدّية، تخرق المتوقّع وتكسر التابوهات، وتتمردّ على الأعراف والتقاليد. أمّا عبد الحليم، فيصوّره النصّ مهزومًا ضعيفًا عاجزًا أمام تحدّيات زوجته.

يعتمد السردُ لغةً سيميائيةً شعريّة تقوم على التكتيف والانزياح والمفارقات؛ فأحداث النصّ مختزلة، تبدو للقارئ مفاجئة وغير واضحة، تنطوي على مفارقات في ثناياها. ولغته موجزة مكثّفة، لا تكشف عن الكثير، بل توحى إليه من القليل المكتوب، وتلجّج القارئ إلى فكّ شيفراها. إضافةً إلى ذلك، يلحظ القارئ انزياحًا في استخدام المفردات يجعلها تتيح قراءات عدّة، ويجعل النصّ مراوغًا غير مستقرّ عند معنى بعينه، وهذا من مميّزات النصّ النسويّ.

نموذج لقراءة في قصة يوسف إدريس "بيت من لحم" بعدسة نسوية:-

تدور أحداث القصة حول حاجات جنسيّة نساء محرومات، نساء حرمتهنّ السلطات التي تحكمن، بدءًا بسلطتي المجتمع والدين. في هذه القصة يبرز العنصر النسائيّ بقوة، فهو الفاعل والمبادر في كسر التابوهات الاجتماعيّة والدينيّة. تصف القصة تصرّفات فتيات من طبقة فقيرة مهمّشة، سجينات في بيتهنّ ولا نصيب لهنّ في هذه الدنيا حتّى في بعض الجمال. إلا أنّ هؤلاء الفتيات لا يتنازلن عن حقّهنّ في ممارسة علاقة جنسيّة تسدّ حاجاتهنّ، فتكون النتيجة أنّ يقمن بأبشع ما يمكن أن تكون عليه علاقة جنسيّة غير شرعيّة، إذ يشاركن أمهنّ في زوجها الكفيف. كلّ هذا بموافقة منها، وهي السلطة في العائلة الصغيرة بعد غياب سلطة الأب.

نُطرح في هذه القصة انّفاقات اجتماعيّة هامّة، لتخرقها نساء القصة ويتمردن عليها، والمخترق هنا قضايا محسومّ النقاش فيها من المنظور الدينيّ كالعقّة والشرف المستبدلين بالزنا المبرر. لربّما بالغ الكاتب في الطرح والاستهتار ليستفزّ ويحثّ على التغيير، وجعل الاستهتار مصادقًا عليه من رأس العائلة الأنثى، وبتواطؤ خفيّ من زوج الأم الذي دخل البيت أساسًا كمقرئ لكتاب الله، ممثلًا للسلطة الدينيّة.

وعلى الصعيد الفني الجمالي المكمل للفكرة الرئيسية، نرى الشخصية النسائية حاضرة بقوة على مستوى العدد والفاعلية. أما على مستوى زاوية السرد، فيعلو صوتُ نصير المرأة في النص ليكشف عن وعيها للقارئ، فنسمع صوت الأم إذ قالت مبررةً دَورها في جريمة الزنا: "جائعات وهي التي كانت تُخرج اللقمة من فمها لتطعمهن... هي التي كان همها حتى لو جاءت أن تطعمهن، هي الأم، أنسيته؟"

أما لغة السرد في هذا النص، فتكثر فيها الكلمات المفعمة بالمعاني والإيحاءات الجنسية، وفي السرد أيضًا تكثيف لذكر وتوصيف الأجساد ينضح بإيحاءات للحاجة الجنسية، نحو: طويلة بيضاء ممشوقة؛ فائرات؛ كتل غير متناسقة؛ العود؛ إناث؛ تتناثر مكبوتة... تلك الإيحاءات توّظف لتدير الفكرة المركزية في النص بذكاء، فتُدين ظلم السلطة الاجتماعية الذكورية المدعومة من قبل السلطة الدينية.

كذلك تستخدم القصة بعضًا من الرموز التي اصطلح عليها المجتمع الذكوري وثبّتها ووظفها لخدمته، فتسخر القصة من هذه الرموز لتهزأ من قيم هذا المجتمع الزائفة. من أهمها "الخاتم" الذي يرمز إلى مؤسّسة الزواج، بل هو رمز لعقد قران ديني يربط بين كل متزوجين، وليس دليلاً حتمياً على حلال العلاقة وشرفها، إذ يخترق هذه المؤسّسة واضعوها كما يتفق الحال مع مصالحهم الشخصية.

كذلك رمز "الصمت"، الخلق الذي يتمسك به الفكر الذكوري لأنه يضمن بقاء الحال على ما هو عليه. هو رمز للقبول والانصياع والطاعة. مع تطوّر أحداث القصة، يتحوّل إلى صمت من نوع آخر، صمت من إبداع العنصر النسائي يخدم في التستر على كسر للتأوهات الاجتماعية والأعراف السائدة.

وأخيراً ثمّة "الرجل الكفيف" رمزاً ممثلاً للسلطة الدينية؛ فعلى خلاف المتوقع منه (أن يكون باناً الأخلاق الدينية وناشراً الرسالة النبيلة)، نراه يرأس الرذيلة في هذه القصة. إذ يستنكر الراوي تصرّف الرجل الكفيف الشريك في عملية "الزنا" المشتركة، غير واجدٍ له مبرراً، فيؤكّد الكاتب أنه يدرك حقيقة ما يفعل رغم عماه، ويجعله يقول: "بل هو الذي أصبح خائفاً أن يحدث المكروه مرةً ويخدش الصمت. ربّما كلمة واحدة تفلت فينهار لها بناء الصمت كله، والويل له لو انهار بناء الصمت".

إجمال:

يجد القارئ في أعمال الأديبين المثقفين يوسف إدريس وزكريّا تامر أنّ موقفيهما من المرأة والرجل في هاتين القصتين ينسجمان مع مواقف نصية عديدة أبدعها كلٌّ من الكاتبين؛ ففي العديد منها يبدوان نصيرين للمرأة متعاطفين مع قضاياها، كما يبدوان ساخرين من كلّ القوى التي سلبت الإنسان المستضعف حرّيته. فتكون مناصرتهم للمرأة منسجمةً مع رؤيتهما المناهضة للاستعمار، على سبيل الموازنة بينها وبين المستعمر المستضعف في الصورة السياسية العامة، ونعتقد أنّهما قد ناهضا الفكر الذكوري كصيغة من صيغ المناهضة مباني القوة القامعة غير القابلة للتجزئة. ويبقى البتّ في ادعاء هذا المقال القائل باتسام نصوص الكاتبين بمظاهر نسوية رهين بحث مستفيض في جميع أعمال الكاتبين الأدبية.

مصادر:

صقوري، محمّد. (2007). *دراسة في السرد النسويّ العربيّ الحديث*. حيفا: مكتبة كلّ شيء.

- Digby, Tom. (1998). **Men doing Feminism**. ed. by Tom Digby. New York: Routledge.
- Greene, Gayle & Coppelia Khan. (1991). "Feminist Scholarship and the Social Construction of Woman" **Making a Difference: Feminist Literary Criticism**. ed. by Gayle Greene & Coppelia Kahn. Routledge, NY pp. 1-36.
- Jones, Ann Rosalind. (1991). "Inscribing femininity: French theories of the feminine" **Making a Difference: Feminist Literary Criticism**. ed. by Gayle Greene & Coppelia Kahn. Routledge, NY. pp. 80-112.
- Moi, Toril. (1995). **Sexual/Textual Politics. Feminist Literary Theory**. London and New York: Routledge.
- Plain & Selles. (2007). **A History of Feminist Literary Criticism**. Cambridge: Cambridge University Press.
- Showalter, Elaine. (1985). **The New Feminist Criticism**. Essays on Women and Theory. ed. Elaine Showalter. New Yprk: Pantheon.
- Taha, Ibrahim. (2006). "Beware Men, They Are All Wild Animals" Arabic Feminist Literature: Challenge, Fight, and Repudiation. **Al-Karmil Studies in Arabic and Literature**, Volume 27. pp.25-71.
- Taha, Ibrahim. (2007). "Swimming Against the Current". Toward an Arab Feminist Poetic Strategy. **Orientalia Suecana LVI**. pp. 193–222.
- Tyson, Lois. (2006). **Critical Theory Today**. New York London: Routledge. 2nd ed.

*أماني هوارى طالبة للقب الثالث في أدب اللغة العربية، في جامعة حيفا. ومدرّسة للغة العربيّة لطلاب المرحلة الثانويّة.

التعالق اللغوي بين العربية وأخواتها السامية

اعتمادًا على أعمال الأب أنستاس ماري الكرملّي اللغويّة

شيرين عاهد تناصرة برغوت*

ملخص:

عمل اللغويّون في مختلف أقطار المناطق التي سكنها العرب على البحث في أصول هذه اللغة، نشأتها وكيفية تطورها، فعملوا على ترسيخ أصولها والعمل على ترسيخ جذورها بين أهلها. وإذا وقفت عند الحديث عن هذه النهضة التي حلّت في الأقطار العربيّة تجد أنّها بدأت في لبنان ومصر في أعقاب القرن التاسع عشر، أمّا في العراق فقد بدأت في مطلع القرن العشرين.

لقد كان لبعض الشخصيات المسيحيّة دورًا لا يمكن إغفاله خلال هذه الفترة من النهضة اللغويّة، والحديث يشمل عدّة شخصيات عملت على ترسيخ وتطوير علوم العربيّة اللسانية والأدبيّة، كالشرتوني، ولويس شيخو اليسوعيّ، واليازجي، والبستاني وغيرهم من الشخصيات التي برزت أدوارها في التأليف اللغويّ والأدبيّ. يرمي البحث الحاليّ إلى الوقوف على ما أحرزته هذه النهضة عبر خصوصيّة أعمال الباحث اللغويّ العراقيّ الأصل الأب أنستاس ماري الكرملّي الذي عرّف بما قدّمه للغة العربيّة وعلومها المختلفة من دراسات وبحوث.

مدخل نظريّ:

تتسع رقعة انتشار اللغات السامية حيث تتفرّع في أصولٍ مختلفةٍ، من بينها: الحبشيّة؛ العربيّة؛ السريانيّة؛ العربيّة. إنّ البحث المقارن بين اللغات السامية عمومًا بدأ منذ القرن السابع ق.م.، وذلك ضمن الأعمال اللغويّة التنظيريّة التي قام بها أبو زكريّا يحيى الذي بحث في حينه التعلق اللغويّ بين العربيّة والآراميّة، فوضّح نظريًا انحدار الآراميّة من العربيّة. إنّ الدراسات اللغويّة المقارنة بين اللغات السامية في القرن التاسع عشر استطاعت أن تأتي بتصنيف واضح لعائلات اللغات السامية، حيث إنّ هذه التسميّة هي التي أتى بها الباحث شولتسر لتصنيف اللغات التابعة للأصل الساميّ، والتي كانت تضمّ اللغات: العربيّة؛ العربيّة؛ الآراميّة؛ الحبشيّة (وهي اللغات التي تحدّث بها أبناء سام). إنّ أول من عمل في تاريخ اللغات السامية هم باحثون ألمانيّون (نحو: نولدكه؛ بروكلمان؛ برجشترسر)؛ فقد كان لهذا المبحث مساهمات شريّة قليلة كما يقول إسرائيل ولفنسون (1929) في كتابه تاريخ اللغات السامية الذي يرد فيه

نقاش لغويّ حول فروع اللغات الساميّة التي لا زال العلماء يختلفون في أمرها كثيرًا، وخاصّة أنّ البحث اللغويّ في هذا المجال له عدّة فروع ومجالات. والمدهش في البحث الراهن أنّ علم اللغات المقارن لم يشغل الكثير من الباحثين الشرقيّين بقدر ما شغل الكثيرين من المستشرقين. وهذا العلم وثيق التعلّق بالتاريخ وبالحالات الاجتماعيّة والثقافيّة، وكذلك بجغرافيا المكان وأصول المتحدّثين باللغة المطروحة للدراسة وغيرها من اللغات المقارنة.

لقد شغلني هذا المجال من البحث منذ دراستي في اللقب الأوّل، حيث شُغِفْتُ بالعمل في مجال اللغة الاشتقائيّ (أو كما يسمّى: علم الترتيب أو التأصيل)، ولا سيّما أنّه يرتبط ارتباطاً وثيقاً باللغات الساميّة الأخرى، وكذلك على الباحث في هذا المجال ألا يغفل تأثير اللغات الأخرى غير الساميّة بمختلف أنواعها.

في ما يخصّ العربيّة والبحث فيها لغويّاً، كان لعلماء اللغة المسيحيّين أثر لا يُستهان به في حدوث نهضة لغويّة شملت مجالات اللغة المتنوّعة. إنّ بزوغ هذه النهضة في القرن التاسع عشر بدأ في لبنان، ليؤثّر بدوره على الأقطار العربيّة المختلفة. على ما يبدو، هذه النهضة عمّت علوم اللسانيّات العربيّة المختلفة. من الأمور التي أفضت إلى حدوث مثل هذه النهضة تدرّي وضع السلطة العثمانيّة؛ حيث إنّ ظهور التنظيمات العاملة على المساواة بين جميع طوائف المجتمع أمرٌ سمح للمسيحيّين بالتدخّل ورفع مستوى الوعي في المجتمع العربيّ. أهمّ مجالات الوعي المتحدّث عنها تلك الحاصلة في اللغة العربيّة كلغة سائدة فصحيّ وعاميّة في المجتمع العثمانيّ.

تشير بعض الدراسات أنّه في الفترة العثمانية في بلاد الشام شهدت اللغة العربيّة التطوّر الواضح، وهذا ما بزغ في أواسط القرن التاسع عشر، إذ عُيّن بعض السلاطين بطباعة أهمّ الكتب العربيّة، نحو: قاموس المحيط للفيروز آبادي؛ كافية ابن الحاجب؛ مراح الأرواح لابن المسعوديّ. فها هي فترة داود باشا تشهد التطوّر والنهضة التي لا يُستهان بها. كذلك إنّ التاريخ يشير إلى دور العديد من الشخصيات المسيحيّة في خوض نهضة لترسيخ العربيّة بعد فترة من التدرّي والتراجع، ولا سيّما أنّ "العربيّة المسيحيّة" (أو "العربيّة النُصْرانيّة" - كما دُعيت في بعض المراجع) هي جزء لا يتجزأ من الدولة الإسلاميّة في مراحل تطوُّرها المختلفة، وقد هُمّشت من الدراسات -وهو ما يستدعي البحث والتمحيص حولها.

نبذة عن البحث:

تشهد العراق منذ القرن الرابع للهجرة فكراً عارماً بعلوم اللغة والنحو؛ انطلاقاً من مدرستي الكوفة والبصرة، مروراً بمختلف الباحثين اللغويّين، نحو: ابن جنّي والرّمانيّ والحامّي وغيرهم ممّن طرّقوا أبواب اللغة والبلاغة. تطول قائمة المؤلّفين المسيحيّين الذين عُنوا بالأدب وباللغة والتأليف اللسانيّ، وقد صنّف الباحث كوركيس عواد في كتابه معجم المؤلّفين العراقيّين منهم. من جملة هؤلاء المؤلّفين نبتغي الوقوف عند اللغويّ والباحث العراقيّ الأب أنستاس ماري الكرمليّ بكلّ ما قدّم للغة العربيّة من علوم وأبحاث. لم يكن اختيار الأب أنستاس وأعماله اللغويّة محض صدفة. يجمع هذا الأب في شخصه ألقاباً عدّة؛ فهو راهب عكف في دير الكرمل، دارس للعربيّة شغوف بها، عالمٌ نحوّي ارتقى إلى محاوره كبار اللغويّين، وقد ألّم بعلوم اللسانيّات على اختلافها إذ لم يترك باباً فيه إلاّ طرقه، متبحراً في التأثيل والنحو وعلم الدلالة وغيرها من العلوم. تُثير هذه الصفات في الأب أنستاس جدلاً ونقاشاً علمياً لدى كلّ من يقرأه أو يعرف شيئاً من سيرته وأعماله. هكذا أثارت شموليته وعلمه المحيط للكثير من العوالم والعلوم رغبة البحث فيه لديّ.

عن الكرمليّ نذكر أنّه المولود في بغداد (5، آب، 1866) من أب لبنانيّ وأمّ عراقية. تلقى دراسته الابتدائية في مدرسة الآباء الكرمليّين، ومن ثمّ تابع دراسته في مدرسة الاتفاق الكاثوليكيّ وصولاً إلى المرحلة الجامعية فدرس في كلية الآباء اليسوعيين، فأقن العربية واليونانية. انتقل الأب أنستاس عام 1887 إلى بلجيكا ليرتسم راهباً في دير شفرمون، وهناك عُرف بالاسم "أنستاس ماري الكرمليّ" (كان اسمه الحقيقيّ "بطرس ميخائيل الماريني"). انتقل فيما بعد إلى فرنسا ليتلقّى علوم اللاهوت والفلسفة، فارتسم فيها قسيساً منتقلاً بعدها إلى الأندلس، ليتعرّف على علومها الإسلامية، ومن ثمّ عاد من جديد إلى مدرسة الآباء الكرمليّين ليكون مديراً لها، وفيها درس الفرنسية والعربية.

لم ينحصر إلمام الكرمليّ اللغويّ في العربية، بل اعتنى إلى جانبها بلغاتٍ ساميةً أخرى، من بينها السريانية والعبرية والحبشية والصابئية، وبلغاتٍ أخرى غير ساميةٍ -كالفارسية والتركية والإنجليزية والإيطالية والإسبانية-. من الموضوعات التي اعتنى بها الكرمليّ إضافة إلى اللغة: التاريخ؛ التراث؛ علم النميات (النقود والعملة)؛ الملل والنحل؛ البلدان... وغيرها من الموضوعات. في ثقافته وسيرته، عُرف عنه حُبّه الجَمّ للعربية وتقديره لها عن سواها من اللغات، وقد دفعه هذا الشعور الجيَّاش إلى الدفاع عن اللغة والوقوف عند الشائع من الأخطاء في استعمالاتها. لقد دعا هذا الرائد اللغويّ إلى التحدّث بالعربية الفصحى، على الرغم من إلمامه بالعامية ولهجاتها الدارجة، وقد شغلته كلمات لا تُحصى بأصلها وفصلها؛ إذ إنّه أجادَ البحث في علم الاشتقاق اللغويّ.

نلتمس حبه الجليّ الجَمّ للعربية في مقدّمة كتابه نشوء اللغة العربية وموهها واكتهاها حيث قال: "إنّ كلّ أمنيته خدمة العربية وحمل أبنائها على السير في مثل هذا النهج، لؤهلم غيرهم أنّ لسان العرب فوق كلّ لسان؛ ولا تُدانيها لسانٌ أخرى من ألسنة العالم جمالاً ولا تركيباً، ولا أصولاً، ولا... ولا...".

إنّ جُلّ ما يعينني في هذا السياق البحثيّ هو أعمال الأب أنستاس في علوم اللسانيات العربية والبحث المقارن مع اللغات السامية، وأخصّ بالذكر معجمه المساعد، وكتبه المطبوعة في مجال اللغة العربية والعلم المقارن مع أخواتها السامية، نحو: أغلاط اللغويين الأقدمين؛ جمهرة اللغات؛ نشوء اللغة العربية موهها واكتهاها -ناهيك عن المجلّات والجرائد التي أصدرها كمجلّة "دار السلام"، وجريدة "العرب" (التي صدرت يومياً، وهي إخبارية وأدبية)، أمّا الأخيرة فهي مجلّة "لغة العرب"، وهي غزيرة المادة وصدرت منها تسعة مجلّدات.

كما سبق أن دُكر، وقف الكرمليّ عند أخطاء الأقدمين ومن تبعوهم، فشرح الخطأ في ما وُضِعَ داخل المعاجم حتّى لا تُتناقل من جيل إلى جيل، إضافةً إلى عمله في الصحافة والمجلّات الأدبية التي كان له فيها شأن لا يُستهان به رقيّاً ومكانةً في العالم العربيّ. ويذكر عنه مجلسه ومكتبه الذي ارتادته نخبة من العلماء والأدباء. عمل إلى جانب ذلك كلّهُ باقتراح تسمياتٍ عربيةٍ جديدةٍ لمسمياتٍ حديثةٍ كالتسمية "دُخينة" و "دُخنة" للسيجارة، والكلمة "معيّار" للكلمة Critérium، وغيرها الكثير من المفردات التي لم تلقَ الكثير من الرواج لثقلها على سامعيها، وذلك كلّهُ عبرَ معرفته باللغة العربية وغيرها من اللغات السامية، وهو ما ساعده في الكشف عن مزايا المفردات واشتقاقها والنظر في أصولها وتربطها مع اللغات الأخرى.

بناءً على ما جاء، يتّضح أنّ مؤلّفات الكرمليّ التي وقّف عندها العلماء وأثنّوا عليها، على الرغم من أنّ البعض الآخر لم يتقبّلها ممّا جعل الكرمليّ يتمسك بها وينشرها، هذه المؤلّفات أبحرت في مواضيع شتى، إذ لم يقف هذا العالم عند علوم اللغة دون سواها، بل أقن لغاتٍ عدّةً ووقف عند أصولها وتعلّقها مع العربية في مفردات مختلفة. استناداً إلى كلّ ما قيل وما جاء عن الكرمليّ، أطرّح العديد من الأسئلة التي تنبع من افتراضيات مختلفة حول الكرمليّ وأعماله،

وهي بحاجة إلى منهجية بحثية لبرهنتها والإجابة عما ينبع منها من أسئلة يريد البحث الإجابة عنها فيحقق مرماه، وهي:

1. ما هو مصدر التعالق اللغوي بين العربية وغيرها من اللغات السامية، اعتماداً على أعمال الكرملي؟
2. ما الذي يميز هذا التعالق اللغوي بين العربية وغيرها من اللغات السامية؟
3. ما هي مكانة اللغة العربية بين اللغات السامية عامةً اعتماداً على الأعمال الآتية الذكر؟
4. ماذا يميز نظريات الكرملي بشأن نشوء اللغة العربية وأصولها مقارنةً بغيرها من اللغات السامية؟

هكذا تنحصر أسئلة البحث ضمن مضمار علوم اللسانيات كعلم الصرف، الصوت، النحو، التأثيل والدلالة.

إن إمكانية الوصول إلى نتائج وإجابات للأسئلة البحثية المطروحة تتطلب الاعتماد على منهجية علمية واضحة ودقيقة. لذلك رأيت أنه من الجدير بهذا البحث أن يعتمد على التحليل والمقارنة للوصول إلى مرماه، ولا سيما أنني سوف أنهج البحث عن الظواهر اللغوية في أكثر من مصدر وأكثر من معجم، لنحصل على رؤية واسعة وشاملة في كل ما نقف عنده ضمن ما يغوص به هذا البحث، فنقارن جديد ما توصل إليه علماء اللغة المعاصرون بما جاء به الكرملي، متفحصاً مدى التجديد الذي أتى به الكرملي.

أبتغي من خلال دراستي الشمولية قدر الإمكان العمل من أجل الوصول إلى إجابات ذات أثر فاعل في عالم البحث اللغوي، إذ تقتضي في نهاية المطاف أن تظهر دور الكرملي اللغوي ماضياً، فتسلط الضوء على نتائج هذه الأعمال حاضراً، ومن ثم تأتي باستنتاجات وتنبؤات لها صدق مستقبلها لآثار الكرملي، ولا سيما أنه من أهم المنظرين الشرقيين في اللغة العربية وأصولها وتطورها عبر الزمن، ولهذا صدق مستقبلها في اللغة وترسيخ قواعدها ونحوها وأصول الكثير من مفرداتها.

لقد كثرت مقالات الكرملي حول العربية ونشوتها، فقد وضع في أكثر من مقالة رؤية هنا وأخرى هناك في كل من مجلة لغة العرب ومجلة المشرق (لليسوعي)، ناهيك عن المجلات الأجنبية المختلفة. إن أكثر ما يجذب الباحث في ما وضعه الكرملي في هذا الصدد هو كتاب نشوء العربية موهها واكتهاها (1938). يستعرض هذا الكتاب نظريات الكرملي حول العربية وأصولها وتطورها اللغوي. يقول الكرملي في مقدمة الكتاب إنه قد وضع في الفصول الطويلة بحثاً مستفيضاً، إلا أن الفصول متفاوتة الطول؛ فتلك الطويلة قد وضعها "ليشبع البحث قولاً"، وقد تتطرق عبرها إلى مواضيع لم يسبقه إليها أحد -على حد قوله-، والقصيرة هي تعليق على ما جاء به السابقون له أو معاصروه.²⁰

يخوض الكرملي في كتابه نشوء اللغة العربية مستويات بحثية متنوعة بشأن نشوء اللغة وتطورها وتناظرها بغيرها من اللغات السامية وغير السامية -كاليافيتية، والسكسونية واللغات المندثرة والفارسية-، وما يندثر وما يخلد من الكلام في اللغة، وما يعمل من ظواهر لغوية داخل اللغة من شأنه أن يغير ويطور فيها، ومعارضة العربية لغيرها، وشروط الأخذ

²⁰ انظر مقدمة كتاب الكرملي: أسناس ماري الكرملي، نشوء اللغة العربية موهها واكتهاها (النجالة: المطبعة العصرية، 1938)، ص. 1-10.

من لغة، والحرب بين لغةٍ وأخرى، وما بين الميتم والخالد في العربية وغيرها من المباحث اللغوية التي شملت بأغلبها مواضيع في فقه اللغة من اشتقاق ومقارناتٍ لغوية بين العربية واللغات الأخرى من السامية وغير السامية.

بادئ ذي بدء، يجب الوقوف على أصل اللغة العربية (أو كما أسماها الكرملّي: لغة أهل قحطان -وفي هذه التسمية نزعة خاصة-) وفي مواضع أخرى من الكتاب نفسه أسماها اللغة العدنانية نسبة لبني عدنان). عبر العودة إلى مراجع تاريخية تفصّل أنساب القبائل العربية قبل الإسلام، نفهم مصدر هذه التسمية، وأنّ بني عدنان وقحطان يضمّون مُضَر وربيعة، وأنّ من هؤلاء نبغت النبوءة، وأنّ تلك هي الأنساب التي ترجع إليها قريش، حيث تشير غالب الحقائق العلمية إلى نسبة العرب إلى هذين الجدّين -على الرغم من أنّ أمرًا كهذا لم يرد في القرآن أو في الشعر الجاهلي.²¹

في نظرة خاطفة إلى نشوء اللغة القحطانية (وفي التسمية مرجعية للأصل الذي يخصّ الكرملّي البحث فيه)، نجد أنّ اللغويين قد ذهبوا في مذهبين؛ ثمة فريق قال إنّ أوّل اللغة قد وقع في هجاء واحدٍ أي مقطّع من حرفٍ متحرّكٍ فساكنٍ محاكاةً للطبيعة، وثمة فريق آخر قال إنّ الأصل يقع في ثلاثة حروفٍ على هجاءٍ واحدٍ أو اثنين حتّى اتّسعت اللغة. يعلّق الكرملّي على هذين الفريقين فيوافق الأوّل أشدّ الموافقة، بل يدافع كذلك عنه بعد أن أوسع البحث في كليهما. وإليك على هذا مثالاً يطرحه أحد الأقدمين، الأصهباني، في كتابه غريب القرآن. فها هو يذكر مادة "مد" قبل مادة "مدح" على خلاف غيره من القواميس ومعاجم اللغة. وعلى هذا النهج وضع المستشرقون معاجمهم، وهذا المقطع الذي ينشأ منه المعنى يسمّى مادةً أو تركيبًا أو أصلًا أو ترجمة، وإذا تقارب تركيب من آخر فهذا يقرب بين معاني هذه الكلمات، وعلى هذا الأمثلة الجمّة.²²

الكلام في أصله، كما أسلف الذكر، إنّما وُضِعَ محاكاةً لأصوات الطبيعة على هجاءٍ واحدٍ، وفي هذا يتفق العرب مع الغرب. في هذا الشأن، يورد الكرملّي الكثير من الأمثلة التي يبرهن عبرها قوله. على سبيل المثال، "رد" هي "reddere" اللاتينية، وما "ere" سوى كاسعة أي زائدة نهائية. كذلك "ago" اليونانية هي "حجا" العربية التي تعني "ساق" كما في العربية. لا تقف أمثلة الكرملّي عند هذا الحدّ ليؤكّد قوله، بل يجد توافقًا بين العربية والهيلينية؛ فها هي الكلمة "nanos" توافق الكلمة "نع" في العربية (بفتح الأوّل أو بضمّه)، وتعني الرجل الضعيف أو العاجز الجبان كما اتّفق الأغلبون، وعلى هذه الحقيقة تبرز العديد من الاشتقاقات.²³

يقول الكرملّي إنّ الكلام أوّل ما وُضِعَ كان في مقطّع واحدٍ أوّله متحرّكٌ وثانيه ساكنٌ ومن ثمّ تطوّرت الكلمات في اللغة، ثمّ إنّ يقول في موضع آخر إنّ الكلام وُضِعَ على أساس المحاكاة للطبيعة فكان الكلام في بداية الأمر على هجاءٍ واحدٍ أو على هجاءين أوّله متحرّكٌ وثانيه متحرّكٌ، وما تحرّك الحرف الأخير إلّا لإبراز بعض الاختلاف بين المفردات على حدّ شرح الكرملّي فيفهم القائل المعنى المنشود في كلامه.²⁴

²¹ في هذا راجع كذلك ما ورد بشأن العلاقة التاريخية التي سادت بين قحطان وعدنان، إضافة إلى اختلاف العلماء في موضوع نسب العرب، فقد شكك المستشرق الألمانيّ نولدكه في هذا النسب، وهناك آخرون (أمثال هاليقي) شكّكوا بشجرة أنساب العرب هذه وبالروايات التاريخية المنسوبة لها، ولا سيّما أنّ كلّ من هاتين التسميتين دان نزعة خاصة تعتبر القحطانية كناية عن الحضارة والعدنانية كناية عن البداوة. لهذا التقسيم التاريخي أثرٌ خاصٌّ؛ فهو يكشف نزاعات العرب وانقساماتهم. انظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بغداد: جامعة بغداد، 1993)، 1: 468 - 481.

²² انظر في: الكرملّي، نشوء اللغة العربية، 2-5.

²³ إليك ما أتى به الكرملّي في كتابه، وكان قد رجع إلى كلّ من المعاجم المقارنة كاللاتينية والعربية واليونانية العربية، ويقول إنّ الألفاظ الدالة على قرابة كلّ من العربية واليونانية أو العربية واللاتينية في الأصول إنّها هي بالمنات. راجع: الكرملّي، نشوء اللغة العربية، 8.

²⁴ انظر: الكرملّي، نشوء اللغة العربية، 9.

إجمال

إنَّ للباحث اللغويِّ عموماً دَوْرًا فعَّالاً في كشف مزايا اللغة المدروسة وأصولها وكشف خبايا مكنوناتها. هكذا يمكنه البحث في ما اندثر وفي ما ضاع وعلاقته بما خَلَدَ من اللغة. للبحث اللغويِّ العربيِّ والساميِّ دَوْرٌ هامٌّ أيضاً في كشف التعالق اللغويِّ بين العربيَّة وكلِّ من اللغات الأخرى -ساميَّةً كانت أمَّ غير ساميَّةً. بوصفي باحثة في اللغة العربيَّة، تدفعني أدقُّ تفاصيل مؤلِّفات الكرملِيَّ في التعمُّق والعمل والبحث فيها لكونها هامة لغويًّا وتاريخيًّا في رأيي في سبيل ترسيخ اللغة العربيَّة، وكشف أهميَّتها محليًّا وعالميًّا؛ فهي على حدِّ قوله "أمَّ اللغات"، فمن الجدير أن نبحت في قوله هذا وفي أعماله إن كانت ستُظهر خفايا تاريخيَّة تؤكِّد الحضور العربيِّ التاريخيِّ واللغويِّ.

المصادر:

الكرملِيَّ، أنستاس ماري. نشوء اللغة العربيَّة مُوَّها واكتهاها. الفجالة: المطبعة العصريَّة، 1938.
علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. بغداد: جامعة بغداد، 1993.

*شيرين تناصرة طالبة للقب الثالث في قسم اللغة العربيَّة في جامعة حيفا، تخصصت في مجال اللسانيَّات والتعالق اللغويِّ بين اللغة العربيَّة واللغات الساميَّة.

الأمواج، الصوت ومنظومات الاتصال: بحث في برنامج جديد يعتمد الاستراتيجيات الحديثة في طرق تدريس العلوم والتكنولوجيا للمرحلة الإعدادية

نايف عواد*

ملخص

يتناول هذا المقال نتائج بحث قمت به لفحص مدى قدرة طلاب المرحلة الإعدادية على تعلّم مواضيع علمية -
تكنولوجية متقدمة في سن مبكرة، والكشف عن العوامل التي من شأنها أن تؤثر على تحصيلهم ودافعيتهم للتعلّم.
اعتمدت الدراسة منهجية دمجت بين البحث الكمي والبحث الكيفي، واستعانت بعينة بحثية شارك فيها مئة وعشرون
(120) طالبًا من الصفوف السابعة من ثلاث بلدات عربية مختلفة في شمال البلاد. أشارت نتائج البحث إلى تحديات في
دراسة مثل هذا الموضوع في المراحل الأولى (المبكرة)، ولا سيما فيما يتعلق بالأفكار المسبقة الخاطئة حول المفاهيم
العلمية. كذلك كشفت الدراسة عن صعوبات في فهم المصطلحات الأساسية ذات الصلة، مما عزز لاحقًا الصعوبات
المتعلقة بمناقشة مواضيع متقدمة وفهمها. كذلك تعذّر على الطلاب استخدام مبادئ وأسس بسيطة في الرياضيات
وإمكانية تطبيقها في مجال المضامين الفيزيائية. على الرغم من ذلك، تبين أنّ استخدام استراتيجيات تعليم متعدّدة،
وتكرار عرض المصطلحات العلمية والتكنولوجية نفسها بقوالب وأساليب مختلفة، قد أسهما على نحوٍ تدريجيّ، وعلى
مراحل، في التغلّب على قسم كبير من هذه الصعوبات.

في العصر الحالي، لا تزال التحديات التي تواجه تدريس العلوم والتكنولوجيا في المرحلة الإعدادية كثيرة ومركبة. من بين أهم هذه التحديات كيميائية الدمج بين العلوم والتكنولوجيا والهندسة والرياضيات (أي ما يُعرف بـ STEM). كذلك يواجه تدريس العلوم والتكنولوجيا تحديات متعلقة بكيفية استنباط المواضيع العلمية والتكنولوجية من واقع الطالب وربطها بحياته اليومية، وكذلك في الحاجة إلى تطبيق أمط واستراتيجيات تعلم يكون الطالب من خلالها في مركز العملية التعليمية؛ كالتعلم من خلال حل المشكلات والعمل على المشاريع. كذلك يشكل استخدام الحوسبة وتكنولوجيا المعلومات على نحو فعال لتسهيل دراسة العلوم وفهمها تحدياً إضافياً.

القاعدة النظرية

كثر الحديث مؤخراً عن ضرورة تعزيز التعلم ذي المغزى بغية الوصول إلى تعليم -تعلم ناجح للعلوم والتكنولوجيا، يلائم تحديات ومتطلبات العصر الرقمي. وعليه، فقد اعتمدنا إطاراً نظرياً من شأنه أن يوضح ماهية التعلم ذي المغزى وضروريات التعلم الناجح، وكيفية تطبيقها فعلياً على أرض الواقع. يشتمل الإطار على أساليب وطرائق تدريس عصرية، إضافة إلى اعتماد استراتيجيات تدريس وتعلم حديثة يجدر أتباعها، على نحو ما هو مفصل أدناه.

التعلم المتصل بالواقع (Contextual Learning): ويُقصد به ربط العملية التعليمية بمختلف مناحي الحياة التي يعيشها المتعلم؛ فالطالب يتعلم من بيئته ومن محيطه القريب، عند تواجده في المنزل، أثناء لعبه وخلال أوقات فراغه، حين يتساءل عما حوله وينشغل بفهم حقائق الأمور الواقعية التي يراها ويحسها ويلمسها عن كثب (Karweit, 1993).

التعلم المتعدد المجالات (Interdisciplinary Learning): ويعنى بتزويد الفرص والإمكانيات أمام الطالب لاجتياز حدود الموضوع الواحد وتخطيها، وصولاً إلى فهم الصلات القائمة بين مختلف مجالات التعلم، طبيعتها وماهيتها، والسعي نحو إنشاء وتطوير علاقات تماس جديدة. لهذا الفهم المتعدد المجالات أهمية خاصة في مجتمع كمجتمعنا الذي يسعى دوماً نحو التجدد المستمر، في ظل سيطرة وهيمنة واضحة لمجالات التكنولوجيا والهندسة على تفاصيل الحياة اليومية. من هنا فقد بات ربط المواضيع العلمية المختلفة مع التكنولوجيا والهندسة والرياضيات حاجة ملحة، وهو ما يُعرف اليوم عالمياً بـ STEM (Bybee, 2010).

التعلم المبنى على المشاريع (Project based Learning): تُعتبر هذه الاستراتيجية إطاراً طبيعياً لتطبيق أسس التعلم البنائي ومبادئه، ومنصة مهمة لتعزيز مهارات الطلاب المعرفية. من خلال هذه الاستراتيجية، يقوم المتعلم بدور ناشط وفعال، فيكون منهماكماً في حل المشكلات والقيام بمهام عديدة ومتنوعة ورغبة منه في الإجابة عن سؤال بحث يعنيه ويثير اهتمامه على نحو خاص (Thomas, 2000). بهذا الشكل، يتمكن المتعلم من تطوير مهارات التفكير المختلفة - كالتفكير الاستراتيجي والتكيفي، وتعزيز السلوكيات أو التصرفات الإنتاجية. (Schunn & Silk, 2011).

التكنولوجيا التربوية (Educational Technology): إن استخدام التكنولوجيا والحوسبة استخدامًا صحيحًا من شأنه أن يساعد في تعلم العلوم، وذلك من خلال دعم أنشطة مختلفة تتعلق بجمع المعلومات، ومشاهدتها، ومعاينتها، وتحليلها، والتفكير بها وإعطاء تغذية مرتدة حولها. تُعتبر المحاكاة إحدى الأدوات التكنولوجية الناجعة التي تساعد في تمثيل ظاهرة علمية أو مصطلح أو موديل ما بمساعدة برنامج مُحوسَب يقلد ما يحدث في الواقع بأكبر قدر ممكن من الدقة (Kahn, 2008).

بناءً على ما ذُكر آنفًا، بات من الضروري تطوير برامج وبيئات تعليمية جديدة توفّق بين المبادئ الأربعة الواردة أعلاه، وتعمل على جسر الهوة بين الموجود والمنشود.

برنامج "الأمواج والصوت ومنظومات الاتصال"

هو برنامج جديد طوّره مجموعة باحثين من قسم تدريس العلوم في جامعة بن غوريون. يتألف البرنامج من خمسة عشر (15) لقاءً أسبوعيًا (مدّة كلّ لقاء ساعتان تعليميتان)، ويهدف إلى إكساب الطالب فهمًا عميقًا لمصطلحات علمية وتكنولوجية من مجال الصوت والاتصال، نحو: موجة؛ تردد؛ زمن دورة؛ طول موجة؛ سرعة تقدّم الموجة؛ عمل الميكروفون؛ السّماع؛ مكبّر الصوت؛ التحويل من الصوت التناظريّ إلى الصوت الرقّميّ؛ ضغط البيانات...

يعتمد البرنامج على الدمج بين أساليب وطرائق تدريس مختلفة، كالتدريس النظريّ (الأسلوب الوجيه-التقليديّ)، وإجراء تجارب عملية، واستخدام برمجيات وتطبيقات مُحوسَبة، بالإضافة إلى العمل على مشاريع تكنولوجية (نظرية وعملية).

جرى تطبيق البرنامج وتفعيله في عدّة مؤسّسات وأطرّ تربوية في مرحلة الإعدادية، كما جرى العمل على تأهيل طُلاب العلوم في كُليّة إعداد المعلمين من خلال دمجهم في مساقات تعليمية ملائمة. إضافة إلى ذلك، رُوّفق ثلاثة معلّمين من الحقل مرافقة مكثّفة، وزُوّدوا بجميع النصائح والإرشادات اللازمة أثناء تدريسهم الفعليّ للبرنامج الجديد في مدارسهم.

البحث:

هدفت الدراسة إلى فحص مدى قدرة طُلاب المرحلة الإعدادية على تعلّم مواضيع علمية - تكنولوجية متقدّمة في سنّ مبكرة، والكشف عن العوامل التي من شأنها أن تؤثر على تحصيلهم ودافعيتهم؛ أي على الرغبة أو الميل لدراسة العلوم، والمقدرة على تعلّم مواضيع جديدة بصورة ذاتية. جرّت الدراسة على مرحلتين: دراسة استرشادية (Pilot study) ودراسة مركزية (Main study). أما أسئلة البحث الرئيسية التي وُجّهت الدراسة، ففحصت مدى تمكّن طُلاب المرحلة الإعدادية من دراسة مواضيع علمية - تكنولوجية متقدّمة كموضوع الصوت والاتصالات، والعوامل والأسباب التي قد تسهم أو تعيق دراسة مثل هذه المواضيع. كذلك عُنيّت الدراسة بفحص مدى تأثير عملية دمج الاستراتيجيات المختلفة، نحو: التدريس الوجيه؛ تنفيذ التجارب العلمية؛ استخدام الحوسبة؛ العمل عن طريق المشاريع على دافعية الطُلاب لدراسة المواضيع العلمية-التكنولوجية، وقدرتهم الذاتية على دراسة مواضيع جديدة، والرغبة في استخدام الحوسبة في العملية التعليمية.

اعتمدت الدراسة أسلوب الدمج بين البحث الكمي والبحث الكيفي، وشارك فيها مئة وعشرون (120) طالبًا من الصفوف السابعة من ثلاث بلدات عربية مختلفة في شمال البلاد (إسرائيل)، موزعين على ست مجموعات (في كل مجموعة منها ما يقارب العشرين طالبًا). تعلّم الطلاب في ساعات ما بعد الدوام الدراسي وأيام العطلة الأسبوعية، في لقاءين أسبوعيًا، كل منهما مدّة ساعتين. اشتمل البرنامج على خمسة عشر (15) لقاءً. في نهاية المساق، وُزعت الشهادات على مستحقيها ممّن أمّوا جميع واجبات الدورة.

اشتملت أدوات البحث الكمي على:

اختبار تحصيلي نهائي: أُجري في نهاية المساق، وقد تكوّن من خمسة أسئلة أساسية مفتوحة مقسومة الى ثلاثة مستويات: 1. معرفة الحقائق (نحو: تحديد سرعة الصوت في الهواء) 2. معرفة إجرائية (كاحتساب سرعة الصوت استنادًا إلى قانون فيزيائي) 3. إدراك المفاهيم (نحو: فهم مبنى عمل منظومة الصوت وماهيته). لضمان ثبات الاختبار، قام فريق الباحثين بتصنيف الأسئلة وتدرجها إلى المستويات الثلاثة، وقد أظهر الفحص درجة عالية من التوافق في التدريج.

المشاريع النهائية: عمل الطلاب على تحضير مشاريع نظرية في مواضيع متقدمة تتعلّق بالصوت والاتّصال. حلّلت هذه المشاريع وقُيِّمت بناءً على معايير مختلفة قاست جودة المضمون، والمبنى والتصميم، وطريقة العرض أو طريقة التقديم الشفوية. صُنفت المشاريع إلى ثلاثة مستويات وفقًا لمدى تنفيذ المهمة: على نحو تام، أو جزئي، أو منقوص.

استبيان قبلي-بعدي لفحص دافعية التعلّم: اشتمل الاستبيان على اثني عشر (12) ادعاءً من نوع لا يكرت (موافق جدًا - موافق - غير موافق - غير موافق بتاتًا)، ابتغاءً فحص دافعية الطلاب لتعلّم العلوم، ومقدرتهم على دراسة مواضيع جديدة، ومدى رغبتهم في استخدام الحوسبة. اختار الطالب التدريج المناسب من 1 (غير موافق بتاتًا) حتى 4 (موافق جدًا) لكل ادعاء. وقد أشارت امتحانات الصدق المعروفة بـ "ألفا كرونباخ" إلى النتائج التالية: $\alpha_2=0.83, \alpha_3=0.72$ ، $\alpha_1=0.65$ (على التوازي).

أمّا أدوات البحث الكيفي، فقد تضمّنت تدوين المشاهدات الصفيّة وتوثيقها في يوميات الباحث، إضافة إلى مقابلات عميقة مع الطلاب. من الجدير ذكره أنّ أدوات البحث الكيفية خضعت أيضًا لامتحانات الصدق والثبات المختلفة.

نتائج البحث:

أشارت نتائج البحث إلى صعوبات وتحديات في دراسة الموضوع في المراحل الأولى (المبكرة)، ولا سيّما فيما يتعلّق بالأفكار المسبقة الخاطئة. فعلى سبيل المثال، اعتقد الكثير من الطلبة أنّ الصوت عبارة عن مادّة تتكوّن من ذرّات أساسية تُعرّف بـ "ذرّات الصوت". كذلك عبّر معظمهم عن صعوبة في فهم المصطلحات الأساسية ذات الصلة، نحو: سرعة تقدّم الصوت؛ طول الموجة الصوتية؛ الطاقة الصوتية... وذلك لكون هذه المصطلحات مجردة، غير محسوسة وغير مرئية. هذه المشاكل والتحديات أسهمت كذلك على نحو ملحوظ في الصعوبات المتعلقة بمناقشة مواضيع متقدمة وفهمها، كالصوت الرقمي، وكيفية الانتقال من الصوت التناظري (أنالوجي) إلى الصوت الرقمي (ديجيتالي)،

وغير ذلك. إضافة إلى ذلك، تُعَدُّ على الطُّلاب استخدام مبادئ وأُسُس بسيطة في الرياضيات وإمكانية تطبيقها في مجال المضامين الفيزيائية، والمقصود أنّ الطُّلاب -خلال تعاملهم مع أسئلة فيزيائية في مجال الصوت- لم يتمكنوا من ربط الأدوات والقوانين الرياضية الملائمة أو استحضارها من تلقاء أنفسهم.

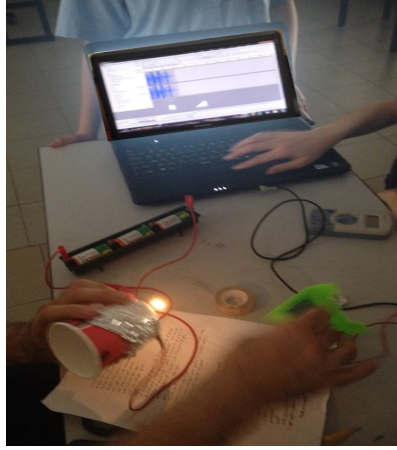
على الرغم من ذلك، تبيّن أنّ استخدام استراتيجيات تعليم متعدّدة، وتكرار عرض المصطلحات العلميّة والتكنولوجيّة نفسها بقوالب وأساليب مختلفة، قد أسهما على نحوٍ تدريجيّ، وعلى مراحل، في التخلُّب على قسم كبير من هذه الصعوبات. بعبارة أخرى، تطرّق المعلّمون (بتوصية من موجهي البحث) إلى الأفكار المركزيّة نفسها بأشكال متنوّعة: تارة من خلال الشرح النظريّ ومحاولة "نقض" المفاهيم الخاطئة، وطوّراً من خلال شرح الظواهر العلميّة المركّبة بمساعدة المحاكاة المُحوَسَبة (التي تجسّد الموديل الحقيقيّ على نحوٍ مرئيٍّ وبمقدار كبير من الدقّة) واستخدام برمجيات الصوت، وأخرى من خلال الحوار والنقاش الجماعيّ، إضافة إلى تنفيذ التجارب العلميّة الفعليّة في المختبر (أو غرفة الصّف).

نتائج اختبار التحصيل النهائيّ -على نحوٍ ما يظهر في الجدول 1- أشارت إلى تمكُّن الطُّلاب من المضامين ونجاحهم في الإجابة عن الأسئلة المختلفة، سواء في ذلك الأسئلة التي تطلّبت "حفظاً واسترجاعاً" للحقائق والثوابت المعروفة، والأسئلة التي احتاجت مهارات حسابيّة وإجرائيّة، وحتى الأسئلة التي تتعلّق بمستوى المفاهيم (المُدْرَكَات) -وهي غالباً ما تشير إلى مستوى عالٍ من الفهم والإلمام بالموضوع.

جدير بالذكر أنّ بعض الطُّلاب (قرابة الـ 20% من مجمل الطُّلاب) قد أسهموا إسهاماً فعّالاً في القيام بتجارب علميّة "إبداعية" عملوا على تصميمها وتخطيطها مسبقاً، نحو: بناء الميكروفون الضوئيّ (الصورة 1) الذي يعتمد على فكرة أنّ شدّة الضوء المرسلّة إلى الخليّة الضوئيّة تتغيّر مع التغيّر في شدّة الصوت.

الجدول 1: معدّل علامات الطُّلاب -مع الانحراف المعياريّ- في الامتحان النهائيّ (على سلّم 0 - 100)

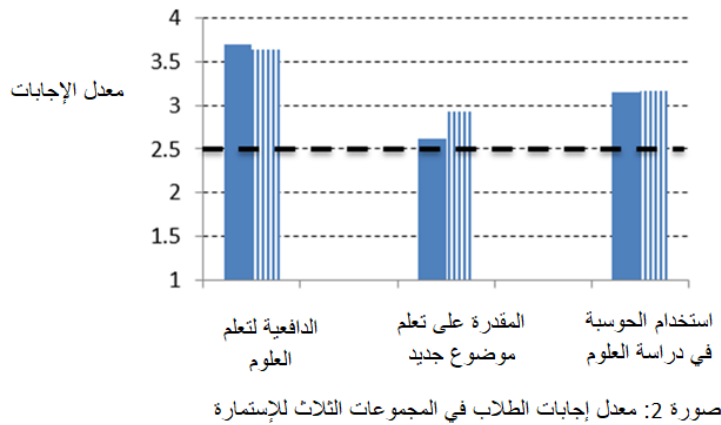
معدّل العلامات (n=112)	
80.02 (22.17)	دراية بالحقائق العلميّة (5 بنود)
85.87 (32.20)	المعرفة الإجرائيّة (5 بنود)
80.15 (29.18)	المفاهيم والمُدْرَكَات (5 بنود)
81.96 (12.7)	المعدّل العامّ



الصورة 1: بناء ميكروفون ضوئيّ-يتضمّن استخدامًا لبرمجية الصوت أودسيتي.

إضافة إلى ما ذُكر، نجح معظم الطّلاب في تطوير مشاريع بحثية نظرية جديدة تتعلّق بموضوع الصوت والاتّصالات، على الرغم من التفاوت والتباين في مستويات هذه المشاريع. من اللافت للنظر أنّ جميع الطّلاب تهيّأوا لعرض المشاريع، وتدرّبوا على ذلك بمساعدة معلّميهم وزملائهم، وقاموا بعرضها أمام الأهل والضيوف في حفل اختتام المشروع.

فيما يتعلّق بمواقف الطّلاب من دراسة العلوم، أظهرت الدراسة رغبة عالية لدى الطّلاب في تعلّم موضوع الصوت في معظم مراحل البرنامج، مع التفاوت البسيط بين المراحل المختلفة. كذلك وُجدت فروق ذات دلالة إحصائية بمستوى الدلالة (0.05) بين المعدّلات الحسابية لمقدرة الطّلاب على التعلّم الذاتي قبل الدورة وبعدها، وذلك لمصلحة القياس البعديّ. الرسم البياني أدناه (الصورة 2) يُظهر أنّ جميع المعدّلات في فئات الاستبيان الثلاث (سواء قبل دراسة المساق أو بعدها) كانت أعلى من 2.5 (منتصف السلم القياس) - مع وجود فروق ذات دلالة إحصائية بمستوى الدلالة (0.05) بين المعدّلات الحسابية للفئة (قبل/بعد) والقيمة 2.5، باستثناء مجموعة المقدرة على التعلّم الذاتي (قبل). هذه النتائج مجتمعة تشير إلى الإقبال والاهتمام اللذين أبداهما الطّلاب لدراسة الموضوع.



الاستنتاجات:

قد يكون أهمّ ما توصلت إليه الدراسة هو ضرورة تطوير وتدريس مواضيع علميّة-تكنولوجيّة متقدّمة تتّصل بواقع الطالب اليوميّ وتخاطب تحديات هذا العصر الرقّميّ، بحيث يكون الدمج بين المواضيع المختلفة -كالفيزياء والإلكترونيات والتكنولوجيا والحاسوب والرياضيات- أمراً طبيعياً وتلقائياً، وجزء لا يتجزأ من سيرورة العمليّة التعليميّة. كذلك يتّضح أنّ الدمج المرن والمتكرّر بين أساليب التدريس المختلفة -كالتدريس الوجيهيّ، وإجراء التجارب العمليّة، واستخدام البرمجيّات والتطبيقات المُحوّسبة، واعتماد التعلّم من خلال المشاريع- يشكّل أحد العوامل المركزيّة في نجاح الطّلاب في دراسة مواضيع علميّة-تكنولوجيّة متقدّمة.

Bybee, R. W. (2010). Advancing STEM education: a 2020 vision. **Technology and Engineering Teacher**, 70(1), 30-35.

Kahn, S. (2008). Model-based teaching as a source of insight for the design of a viable science simulation. **Technology, Instruction, Cognition, and Learning**, 6(2), 1-25.

Karweit, D. (1993). **Contextual Learning: a Review and Synthesis**. Baltimore, MD: Center for the Social Organization of Schools, Johns Hopkins University.

Schunn, C. D., & Silk, E. M. (2011). Learning Theories for Engineering and Technology Education. In M. Barak, & M. Hacker (Eds.), **Fostering Human Development through Engineering and Technology Education (ETE)** (pp. 3-18). Rotterdam: Sense Publishers.

San Rafael, CA: Thomas, J. W. (2000). **A review of research on project-based learning**. Autodesk Foundation.

*د. نايف عواد، يعمل محاضرا في كلية سخنين بمجالات الحوسبة والعلوم. تعنى أبحاثه بتطوير وتقييم برامج جديدة لتدريس العلوم والتكنولوجيا، ملائمة لتحديات العصر الرقمي.